سورة يوسف (١٢)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة وسيرة...قصة وعبرة

نـبي الشـباب وشـباب الأنبيـاء، رائـد العفـاف، والإبـداع، والتنمية، يوسف عليه السلام...

الدكتور إبراهيم بن محمد العنزاوي

الإهداء:

إلى نبي الشباب وشباب الأنبياء ، رائد العفاف، والإبداع، والتنمية، يوسف عليه السلام...

وإلى أولادي: محمد، وأحمد، وميمونة، ومؤمنة.

وإلى كل الشباب المسلم اليوسفي، الذين تتشابه أجواؤهم بأجواء "يوسف" من ترف، وخدود، ونهود، وقصور، ونحور، ولاسيما الذين يعيشون في العالم الغربي، ويغضون من أبصارهم، ويحفظون فروجهم، ورجلهم في الثرى، وهامتهم في الثريا، تتطلع نحو الإبداع، وكلما سمعوا:

هيت لك..!!...قالوا: معاذ الله..!!

الذين سيجعلهم الله حجة على "بعض" الذين يعيشون في العالم الإسلامي، وقد ركبوا عرام الشهوة – التسونامية- ويهدرون هدير الفحول، وتخطف أيديهم،كل ماتقع عليه.

بلا عفاف ولا إبداع، ولا تنمية، ولا هدف...

وعفة الأيدي من عفة الفروج ، والعفة تحفز الإبداع، وتنهض بالتنمية. ويشهد على ذلك:

عمر بن عبد العزيز...!

المحتـــوى

- يقسم البحث إلى عدة أقسام:

*** تمهيد:**

***ودراسة للقصة القرآنية بشكل عام ولليوسفية خاصةً.**

***الفصل الأول: من الآية: ١-٤، منن الله على محمد صلى الله عليه وسلم وعلى العرب.**

***الفصل الثاني: من الآية: ٥-١٠١، سورة، وسيرة، وقصة.**

***الفصل الثالث: من الآية: ١٠٢-١١١، ما ترشد إليه السورة من عظات وعبر.**

***الفصل الرابع: مقارنة بين روايتين لقصة يوسف، رواية القرآن، ورواية الكتاب المقدس.**

***

نفحاتٌ هبتْ علينا...وأسقطناها على الواقع.

من خصائص يوسف:

- صاحب الرؤى الثلاث .
- صاحب القمصان الثلاثة.
- لم تذرف له دمعة، وما سجل القرآن عليه موقفاً ليناً.
- إمام الإبداع الإداري: سبع للتخزين، وسبع للتقنين.
- إمام أهل العفاف، والوفاء... الأخلاق تنمية. والتنمية أخلاق.
- إمام الدعاة الصامتين، وأفعاله منابر متحركة.

- إمام الصابرين بالمدرسة اليوسفية .

- رمزية رعاية الله للقيادات والتخصصات !!

- يوسف عاش بين المخازن والحقول مستنفراً ١٥ سنةً، وزهد بالقصور وبمن فيها، فرفعه الله .

- انفرد يوسف من بين الأنبياء بتوصيف الله لنهايته بأنه: "هَلَك | غافر:٣٤"، بدل: مات أو توفي، كناية عن كثرة التعب الذي أصابه.

- وُفِّق بإنقاذ عشرة من أهله، بما لم يوفق به نوح بإنقاذ ولده، وإبراهيم بوالده، وهما أقل عدوانية من إخوة يوسف، فهو إمام واصلي الرحم العائلي.

- يوسف برواية القرآن نبي (روح...ونور) وفي رواية الكتاب المقدس شخصية تاريخية، مقارنة في ثلاثين مفصل من مفاصل الروايتين.

- الأمل معقود على الشباب الذي يعيش أجواء يوسف من ترف، وخدود، ونهود، ويرتقي بنفسه إلى مستوى الإسلام، ولا يجر الإسلام إلى مستواه !

- أبناء الصحابة وأحفاد التابعين، أنتم الأمل في رفع راية العفاف في الأرض.

الحمد لله الذي فضلنا- أمة محمد- بالقرآن على الناس أجمعين، وأعزنا به مالم يعز أحداً من العالمين، ويبقى القرآن مظلةً لمن لامظلة له، وهداية لمن لانور له، ونصيراً لمن لاعشيرة له، ورأس مال لمن لامال له، وسلاحاً لمن لاسلاح له، وصانع أمة...كل الأمم أخرجت كتباً للناس، إلاّ القرآن: أخرج أمةً للناس، لم تُسبق، ولن تُلحق !

وصلِّ اللهم على من كان خلقه القرآن، وكلامه وحياً من الرحمن، وميراثه القرآن، ووصيته القرآن، وخيار أمته من تعلم القرآن وعلمه.

وارض اللهم عن آل بيته أجمعين وأصحابه، حملة القرآن، وكل منهم كان قرآناً يمشي على الأرض، ولسان حالهم:

اقرأْ، وارقَ... لاتقرأْ ورقةً...

فكانوا الأوائل...في براءات الاختراعات على مدى أحد عشر قرناً. **منهجنا في هذا البحث:**

١- التفسير الدعوي اللغوي ، يتغلغل في ذات السطور ، وما بينها ، وما بعدها .

٢- الإسقاط على الواقع، وكأن سورة يوسف نزلت لتوها، ونزلت علينا خاصةً، وليس كلاماً من تاريخ التاريخ، بل على واقع فيه من يضحك، وفيه من يبكي....، ولكن القرآن لم يسجل موقفاً واحداً على يوسف أنه بكى، لأن البكاء عنوان الهزيمة، والبسمة شعيرة الحياة المتجددة.

٣-لم نأخذ من التفسر المأثور أوسبب النزول إلا ماصح عن رسول الله أو أصحابه.

٤-واعتمدنا على الوعاء اللغوي والقواعد المعتبرة عند أهل العربية، وابتعدنا عن أضغاث الأحلام، والكلام، فإن كان هناك من نفحاتٍ، فهذا من فضل الله ومنّه، ولاندعي بأن هذه النفحات من المسلمات،وللقارئ الحق أن يقبلها أويردها، وحسبنا خطونا إلى الأمام ....

٥- تصفحنا أكثر من أربعة وعشرين تفسيراً في الموسوعة الشاملة، وانتفعنا منهم، وأسأل الله أن يرحمهم ملء السموات والأرض ومابينهما، ولم نتأثر بأهل الشطح، أو النطح، أو البطح، ولكل منهم ظرفه الخاص عندما اجتهد، وليس من البر أن يحاكم اللاحقون السابقين...من باب التعالم. ولهم كل العذر من خلال المعطيات التي كانت متاحة لهم.

٦- موجه للشباب ! لذلك حرصنا على خفة الظل والابتسامة.

والعالم الإسلامي والعربي خاصة بعد الحرب العالمية الثانية، فقد وحدة الصف، وفقد فلسطين وفقد كثيراً من الثروات، وكثيراً من الرجال، . . . وفقد الابتسامة التي هي شعيرة الإبداع والتنمية.

بقلم

الدكتور إبراهيم بن محمد العنزاوي

طيبة الطيبة. ليلة الإسراء والمعراج | ١٤٣١هـ

تمهيد:

وجاءت أساليب القرآن متعددة على قدر طبقات البشر، وتفاوتاتها العلمية والعملية. فالوزير والراعي في الدولة العباسية، يختلفان عن مثيليهما في القرن الحادي والعشرين في كل شيء إلا في فهم القرآن، وقوة التأثر والتأثير، لأن القرآن يخاطب النقطة الثابتة في الإنسان، وهي:

النور....

والروح...

ومصدر النور واحد في الإنسان والقرآن...

ومصدر الروح واحد في الإنسان والقرآن...

وهما لايتأثران بمن يحملهما، بل هما المؤثران الدائمان،كما هو القلب، الذي لايتأثر بحامله إن كان وزيراً أو راعياً، عربياً أو أعجمياً، والإنسان في العصور الأولى، يبقى كما هو، هو الإنسان إلى قيام الساعة.

فالعلماء والساسة وسكان المدن تأسرهم جوانب الحكمة والمناقشة العقلية، والأرياف والبوادي يعشقون القصص والأمثال ويحفظونها، ويتداولونها...

دراسة حول القصة القرآنية عامة، واليوسفية خاصة:

القصص القرآني لإيقاد جمرة الفكر:

وقد ندبنا الله ندباً إلى قراءة القصص القرآني، لما أودع فيها من المصلحة للفرد والأمة، وأفرد الله سورة في القرآن الكريم وسماها " سورة القصص" لإيقاد جمرة الفكر، فقال آمراً للندب: " فاقصص القصص لعلهم يتفكرون " ويستوحى من ذلك:

تكفل الله بأمرين:

- استمرارية الحياة والعطاء لقصص القرآن.
- دوام طاقة التأثير والتغير في القصة القرآنية.

لقد ضمن الله لها البقاء والعطاء، ولن تنفد، أو تستهلك، والقصة القرآنية دائماً لها نور خاص، تعطي جديداً كلما قرئت، وتولد تغييراً وتحويلاً وتخليقاً، كما فعلت بجيل الصحابة، ولن تُبْقِي منهم إلا الاسم والرسم، فعمر بن الخطاب عندما تحول للإسلام، لم يبقَ من قديمه إلا اسمه ، وطوله، وعرضه.

".... والقصص القرآني سماوي المصدر، رباني الهدف، بشري الحدث، إنساني العواطف، يتحدث عن الناس إلى الناس، ويأخذ من الحياة إلى الحياة، والقصة تقوم على محورين: الحدث والشخص، والإبداع في الموازنة بينهما، والأشخاص في القصة القرآنية ليسوا هدفاً، ولكنهم نماذج بشرية، وشخوص القصة الأنبياء عليهم السلام مع أقوامهم لدعوتهم إلى الله وتحرير عقيدتهم،..."[1]

---

[1] بتصرف.استفدنا من كتاب: القصص القرآني، د|عبد الكريم الخطيب

رحلتي مع قصة يوسف عليه السلام.

منذ تاريخ ٢٩ | ١٢ | ١٤١٤هـ، نشرتُ في جريدة المدينة المنورة، ملحق الأربعاء، مقالاً حول -كتاب إداري- قدمته للقراء، ونبهت في مقالي إلى مهمة سيدنا يوسف عليه السلام، أنها كانت مهمة إداريةً، وما كنت أحسب أنها فكرةً بكراً، وأنها تجد ذاك الصدى، وعندما جاء عام -١٩٩٦م، كنت محاضراً بجامعة الملك عبد العزيز-جدة- قسم اللغة العربية، وكان كتاب دراسات أدبية لنصوص من القرآن، لمحمد المبارك -رحمه الله- مقرراً.

وكانت قصة يوسف بعشر صفحات، من جملة مواضيع الدراسة، تتناول الأهداف العامة، ولكنني توسعت في قصة يوسف يومها.حتى جاء شهر رمضان ١٤٣٠هـ، تناولتها بعد صلاة العصر في الجامع الكبير، بمدينة -الباب- المحروسة والمباركة. وفي حينها تربيتُ، وتتلمذتُ على سورة يوسف، ولما جئتها لتعطيني ما تريد... وليس لتعطيني ما أريد... فكان عطاؤها غير مجذوذ ولامحدود. وانكببتُ أقرأ السطور، ومابين السطور، وما بعد السطور.

وفي نهاية حج عام ١٤٣٠هـ فقدت الكمبيوتر المحمول، وبه تفسير سورة يوسف جاهز للطبع، ولما راجعت نسخة الاحتياط، وجدت فيها كل الأبحاث ماعدا سورة يوسف، تذكرت أن ذئب يوسف أخذ القميص بمن فيه، فتأسيت بيعقوب، وقلت: فصبر جميل والله المستعان.

رمضان ١٤٣٠هـ والمسلسلات اليوسفية:

وأتساءل مع نفسي بعد انتهاء رمضان ١٤٣٠هـ، ما السر وراء اختيار سورة يوسف تحديداً هذا العام ؟ منّي، ومن غيري؟

وما عرضته الفضائيات في أكثر من مسلسل حول قصة يوسف في ذلك العام ولأول مرة، ولو تواعدتم لاختلفتم في الميعاد، ولعل وراء الأمر سرّاً ربانياً لانحيط به، هو توجيه الأنظار نحو سيرة يوسف، لأن الأمة الإسلامية تمر بمرحلة فيها بعض مواطن الخلل التي قد سبق وعالجها يوسف:

- كونه إماماً بالإدارة، وفي هذا تنبيه الأمة أن تتوجه نحو الإدارة، وهي نقطة الضعف في الأمة .
- وكونه إماماً في صلة الأرحام، ولعل الأمة تصل أرحامها المقطعة، من أجل وحدة الصف الداخلي.

-وكونه إماماً في العفاف، لعل الأمة التي بدأت تخوض وراء الأمة "المتبرجة" في الفضائيات وفي الشوارع وغيرها، لعلها تنتبه، وتستفيق قبل خراب البصرة،...

وهذه الأفلام التي عرضت قصة يوسف عليها مآخذ شرعية، كالخروج عن النص القرآني، وتجسيد النبوة، ومن أجل التشويق وزيادة القيمة التجارية، ضغثت ضغثاً[٢] من الأخبار الواهية والإسرائيليات، لتطويل حلقات المسلسل.

٢-كل ما جمع وقبض عليه بجمع الكف، وفي التنزيل" وخذ بيدك ضغثاً" من نبات الأرض.وفي بلاد الشام المستخدمة الآن: دغث، يدغث...

ومما جاء في مجلة الوعي الإسلامي الكويتية العدد ٥٣٦. ربيع الآخر: ١٤٣١هـ -بتصرف شديد. تقييم لمسلسل يوسف في بعض القنوات:

- تجسيد يوسف... وقد حرم فقهاء المسلمين تجسيد الأنبياء. وقد التزمت السينما العربية إلى حدٍّ كبير.
- العالم الغربي يجسد الأنبياء، وحتى "الحق" جسدوه" تعالى الله عما يصفون"[٣]

والسؤال: ماذا وراء هذه الخطوة الخطيرة في قادم الأيام ؟

- هناك نية في هوليود لإخراج فلم عن المصطفى صلى الله عليه وسلم.

والسؤال: مامدى دقة النص التاريخي، ومن هو الممثل لشخصية المصطفى؟ وماهي الفجوات التي ستترك في (...) سهواً أو قصداً، لتكون مدخلاً شيطانياً ؟.

- المسلسل اليوسفي لم يلتزم بالنص القرآني، وجاء بأحداث ليس لها زمام أو خطام من الإسرائيليات. ا.هـ.

الثمرة التربوية والنفسية لهذا التجسيد، تزوير شخصية النبوة وتحجيمها بكل جلالها وجمالها، فترتسم صورة النبي عند المشاهد بحجم الممثل، أو بالقدر الذي أراده المخرج.

مناخ السورة زماناً، ومكاناً، وقرآناً.

---

[٣] النمل| ٦٣.

لاتدرس العين منفصلة عن الرأس، ولا الرأس منفصلاً عن الجسد، ولكل عضو مناخ خاص به، ضمن المجموعة التي ينتمي إليها، في خصوصيات الجسد.

وسورة يوسف لها مناخ خاص، تقدمتها سورتان لنبيين هما: يونس وهود، وبعدها جاءت سورة إبراهيم أبي الأنبياء، وكل ذلك بتقدير العزيز العليم.

وكل كلمة وكل حرف في القرآن، جاء بميزان، وهذه لمعة واحدة من هذا الميزان في مسألة الترتيب، لقد جاء ترتيب سورة يوسف (١٢)، موافقاً لعدد أولاد يعقوب (يوسفِ وإخوته) (١٢). وميزة هذه الشخصيات حاضرة إلى نهاية القصة، ولم تكن هي الهدف، ولكن الدور الذي كانت تقوم به، والأثر الذي تركته على الأرض.

وجاء ترتيب سورة يوسف في الثلث الثاني من القرآن، بعد يونس وهود وفي نهاية العهد المكي، وهل هذا من الترتيب المحكم أم من الموافقات ؟ ومن الموفقات الحروف المقطة والاستهلالات؟

.

لماذا خمس سور والثالثة سورة يوسف استهلالاتها (أ، ل، ر)؟

ومما يلفت النظر بتوحد الحروف المقطعة والاستهلالات في هذه السور:

(أ- ل – ر-) هذه الاستهلالات موحدة في خمس سور أوسطها يوسف:

- أ ل ر * تلك آيات الكتاب الحكيم....يونس

- أ ل ر *كتاب أحكمت آياته، ثم فصلت...هود

-أ ل ر * تلك آيات الكتاب المبين....يوسف

- أ ل ر *كتاب أنزلناه إليك....إبراهيم

-أ ل ر * تلك آيات الكتاب وقرآن مبين... الحجر

هذا التوافق في الاستهلالات والمنطلقات، يشي بتوافق كثير من المضامين، وبتوافق كثير من الإيحاءات للدعوة والدعاة في وجه من الوجوه، وللمكذبين في وجه آخر، وبتوافق مع الزمان والمكان والمرحلة التي تمر بها الدعوة والدعاة –آنذاك– وما تمر بها الدعوة والدعاة اليوم.

وفي زمن نزول سورة يوسف كانت الدعوة تمر بأواخر المرحلة المكية، وكان البلاء يصب فيها صباً، وتوحد العالم عليهم تحت ذرائع شتى، هو صنعها، وتحولت الأرض إلى نادٍ مفتوح لصيد المسلمين بكافة الأسلحة من رمح، وسيف، ونبل، وقوس. كما هو حال الأمة اليوم. وأعداء الإسلام لاتنقصهم صناعة الذرائع. وتصويب أسلحتهم على كل شيء يتعارض مع مصلحتهم، فهو هدف لهم، وصار كل حجر وراءه إرهابي.

وفي الثلث الثاني من القرآن، بدأ بسورة يونس، ثم هود ثم يوسف، وكلها في نهاية العهد المكي، وفيه تطامى البلاء، وبلغ السيل الزبى، وبلغت قلوب المؤمنين الحناجر، ولاسيما فترة المقاطعة المكية في (شعب عامر) ثلاث سنوات، والمسلمون لايجدون مايأكلون، حتى أكل بعضهم أوراق

الشجر، وبعضم وجد جلد ميْتةٍ، فحرق الوبر، ثم دقّه، واستفه، وشرب عليه الماء، وتفصيل ذلك في كتب السيرة، وهذا البلاء مستطرق على عموم الصحابة المكيين– رضي الله عنهم- وكانت حصة النبي صلى الله عليه وسلم، من البلاء مضاعفةً أضعافاً كثيرةً، وعلى سبيل المثال، لا الحصر، مات سندا رسول الله،أمي خديجة رضي الله عنها، وأبو طالب عم النبي.

وأم المؤمنين خديجة رضي الله عنها ، لها دَيْنٌ في عنق كل مسلم، لأنها لم تكن امرأة أو زوجة فحسب، بل كانت حاضنة لرسول الله، ومن معه من فقراء المهاجرين، يأكلون من مالها وفي بيتها، وعددهم يقارب السبعين أحياناً، وهي أول من آمن به، وثبته، وبشره.

خديجة... وما أدراك ما خديجة !؟:

هي أم بحنانها، ومربية بعقلها، ومرشدة بفكرها، ومجاهدة بمالها، فبرحيلها تركت فراغاً في نفس رسول الله، وبيت رسول الله، ودعوة رسول الله ، وفي مجتمع المسلمين الجدد، وأما عمه أبوطالب، سيد الوادي بلا منازع، وهو الدرع الحصينة التي تترس بها رسول الله في الفترة المكية، وفي بقائه على دين قومه، أعطاه مهابةً وتقديراً من قريش، وهنا تعاظم البلاء على الجميع من أنصار النبي، وإن كانت حصة النبي هي الأثقل في الموازين والمعايير، ففي ترتيب سور هؤلاء الأنبياء يونس وهود ويوسف،... إيحاءات، سنفصل القول فيها ، فيما بعد...

ولعل سائلاً يسأل: لماذا هذه الأسماء من الأنبياء بالذات دون غيرهم؟ سنبينه في مكانه.

خمس سور فيها إيحاءات تربوية ذات وجهين:

وماهي الإيحاءات التربوية ذات الوجهين:

وجه فيه إيحاء لقريش رمزية المواجهة، والآخر للنبي ولمن معه، ولمن بعده، التي تتضمنها هذه الأسماء من الأنبياء؟ الذين فرق بينهم الزمان والمكان، وجمع بينهم المنهج والقرآن والفترة المكية، لأن هدفهم واحد، ورسالتهم واحدة، ومعاناتهم واحدة مع أقوامهم، وإن اختلفت الصور. وفي هذه السور إيحاءات لقريش، خذوا العبرة من الأقوام الذين كانوا أشد منكم بطشاً، وكذبوا أنبياءهم ، وإيحاءات لرسول الله ومن معه، فاصبر، إن وعد الله حق...

القصة القرآنية سماوية المصدر واقعية الحدث:

الإنسان هو الإنسان، والرسالة هي الرسالة، والنبي هو النبي، لذلك يقص الله على الأنبياء أنباء من سبقهم من إخوتهم من الرسل والأنبياء، وليست قصصاً لمجرد أنها قصص، ولكنها تطبيقات عملية وقعت على الأرض بين الأنبياء وأقوامهم، فيذكر الظروف التي تتشابه مع هؤلاء الذين يستقبلون التنزيل، ويذكر خواص الأنبياء التي تتشابه مع هذا النبي الذي يستقبل التنزيل، لأمور تربوية كثيرة، وأهمها الجانب النفسي، للأسوة والقدوة والعبرة والعظة، وما من قصة في القرآن الكريم إلا ولها وجهان مقروآن: للعدو والصديق، أما الوجه الذي فيه تهديد وإنذار للضالين المضلين- فليس من باب التشفي والإنتقام، ولكن من باب الرحمة والعدل بالناس- لأنه خلقهم لهدف واحد أن يوحدوه ولو لمرة واحدة، لحديث: " إن الله يقبل توبة عبده ما لم يغرغر" عفا عنه وتاب عليه، لأنه حقق ما خلق

له، وهو لم يخلقهم من أجل الذبح والفرم، وهذا المزارع يأتي بالبقرة من أجل الحليب، فيصبر عليها إذا مرضت ويعالجها، ويتحملها كلما قلبت العلف، و إذا تأخر حملها، يأخذ بكل الأسباب، فإذا أغلقت أبواب الشفاء والعلاج في وجهه، الآن يبدأ يفكر بالسكين لأن البقرة جاءت لهدف غير السكين، ولله المثل الأعلى.

فالإيحاء الضمني الموجه في سورة يونس لأهالي مكة، أنتم كأهالي (نينوى) لاتؤمنون حتى تروا العذاب قد أحاط بكم، وقد تحقق ذلك يوم فتح مكة، لما جاءتهم جنود الفتح من أسفل وأعلى مكة، أسلمت مكة، وأسلم الوادي والجبل، والحر والعبد، قوله تعالى: " فَلَوْلاَ كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ آمَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الخِزْيِ فِي الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ[٤]" والعاقل من اتعظ بغيره.

والوجه الآخر من الإيحاء في قصة يونس الموجه للنبي صلى الله عليه وسلم:

ورود قصة نوح بنفس السورة، هو رمزية الصبر على مر الدعوة ومرارها، كما صبر نوح عليه السلام" ألف سنة إلا خمسين عاماً " وكان يدعو ليلاً ونهاراً، وفي قصة يونس تنبيه ضمني للنبي-صلى الله عليه وسلم- هذا يونس لما نفد صبره مع قومه، وترك إصلاح الأمر المسند إليه، تحول من ضيّقٍ إلى أضيق، تحول من سعة الأرض إلى ضيق البحر، ومن ضيق البحر إلى ضيق السفينة، ومن ضيق السفينة إلى ضيق جوف الحوت، قوله تعالى:"

---

[٤] {يونس/٩٨}

وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنْ الْمُدْحَضِينَ فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنْ الْمُسَبِّحِينَ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاء وَهُوَ سَقِيمٌ وَأَنبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ"[٥] {الصافات/١٤٠-١٤٦}

وفي ذلك عبرة للدعاة أن يصبروا، وإذا فقدوا الصبر، فقدوا رأس مالهم، ثم تحولوا من سعة الأرض إلى ضيق السجون، ومن ضيق السجون إلى ضيق اللحود، وكل ذلك قد كان !!

وأما قوم يونس تغيروا بعده، فألهمهم الله التوبة، فتابوا، ورفع الله عنهم العذاب الذي أحدق بهم: " فَلَوْلاَ كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ آمَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الخِزْيِ فِي الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا...."[٦]

وفي هذا إيحاء للنبي ومن معه، ومن يلحق به، أن الأنبياء بحاجة إلى الله، والله ليس بحاجة إلى الأنبياء، فكيف حال الذين يعملون بحقل الدعوة يوماً أو بعض يومٍ، ويمنون على الله ؟!!

ولما اشتد الأمر على المسلمين، والعذاب تعالى على جبال مكة، وهنا ندر الدخول في الإسلام،حتى إذا استيأس من استيأس من داخلين جدد في الإسلام، وقال من قال: متى نصر الله ؟ جاءت سورة هود إنذاراً من الدرجة الأولى لأهالي مكة: "وَلَمَّا جَاء أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ

---

[٥] {الصافات/١٤٠-١٤٦}

[٦] {يونس/٩٨}

بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُواْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْاْ رُسُلَهُ وَاتَّبَعُواْ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ وَأُتْبِعُواْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلا إِنَّ عَادًا كَفَرُواْ رَبَّهُمْ أَلاَ بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ [٧] {هود/٥٨-٦٠}

وفي قصة هود إيحاء للنبي بأننا لم نتخلَّ عن هود ولن نتخلى عنك، ولكن اصبر، كما صبر أولو العزم من الرسل.

الحسد محور من محاور قصة يوسف:

الحسد أول ذنب في السماء لإبليس، وأول ذنب في الأرض لابني آدم...

ومشكلة قريش مع النبي صلى الله عليه وسلم، لم تكن عقديةً صرفةً، بل كانت حسديةً صرفةً، وهذه سنن كونية، ولما دخلت الدعوة المرحلة الأخيرة في الفصل المكي، وبدأ التمحيص العائلي في البيت الواحد، وفي الأسرة الواحدة، من مع قريش؟ ومن مع رسول الله؟

فجاءت سورة (تبت) لتقول كلمة المفاصلة: النسب نسب الدين وليس نسب الطين، ثم جاءت سورة يوسف في مرحلة من مراحل الدعوة المكية التي كثر بها التعاتب والتلاوم بين الأسر المتناصفة نصفها مع النبي،

---

[٧] {هود/٥٨-٦٠}

والنصف الآخر مع قريش ، ومشكلة قريش مع النبي لم تكن عقدية صرفة وحسب، بل كانت تنافسية صرفةً، لماذا يكون محمد هو النبي، ولم يكن من أصحاب النفوذ المادي، من أهل مكة أو الطائف؟

وسجل القرآن هذه الظاهرة الحسدية التنافسية، بقوله: "وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ[٨] {الزخرف/٣٢}

فجاءت سورة يوسف لتجلي الموقف النفسي التحاسدي، ففي سورة يوسف نموذجان من التظالم والتحاسد، أحدهما وجد في بيوتات النبوة في بيت يعقوب، بين أخوة يوسف حين كادوا له وهم عصبة، وهو طفل صغير، وصبر صبراً جميلاً، فكيف لو كان كبيراً ؟ فغيبوه عن أبيه، وغيبوه في قعر مظلمة... رسالة ضمنية للدعاة، توقعوا الأذى من أقرب الناس.

و الآخر في بيوتات القيادة في بيت العزيز، تحاسدت النساء عليه، فغيبْنَه في ظلمات السجن.

يوسف أوذي من حاسديه وعاشقيه:

فأوذي من حاسديه وأوذي من محبيه، ولم يتخلَّ الله عنه، وفي النهاية خروا له سجداً، والإيحاء الموجه لقريش: إن الله بالغ أمره، رغم كل المكر

---

[٨] {الزخرف/٣٢}

والتحدي الذي صب على يوسف، أوصله اللهذروة المجد، ونهاية قريش كنهاية إخوة يوسف، ستخضع قريش له، ويعفو عنها كما عفا عمن آذوه، وقال لهم: لاتثريب عليكم اليوم" وقد وقع ذلك يوم فتح مكة، قال لهم النبي:" اذهبوا فأنتم الطلقاء!!

وفي سورة إبراهيم إيحاء للمفاصلة في نهاية المرحلة المكية بين الأب وابنه والأخ وأخيه، وفصيلته التي تؤويه، والنسب هو نسب الدين ، لانسب الدم والطين ، والتبرؤ من كل حسب أونسب لايصل إلى الله، كما في حال إبراهيم في عطفه وبره لأبيه، وحال إبراهيم ليس كمثله حال، وعزمه ليس كمثله عزم قدم النسب الإيماني على نسب الدم، كما في قوله تعالى: " وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلاَّ عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لأَوَّاهٌ حَلِيمٌ [٩]

ومهمة الأنبياء إنقاذ، ورحمة، وإسعاد للناس، وإن قاتلوا، أو خاصموا، قاتلوا الكفر الذي داخل أهلهم وقومهم، وهم أقرب الناس إليهم، كأي عملية جراحية، لاتريد بتر عضوٍ ما، ولكن تريد بتر الداء الذي يسكن العضو !

ولقد مرّ معنا مجموعة من السور متوالية، ولم تتكرر، ولها خصوصيات، منها:

- جاءت متوالية بأسماء أنبياء.
- وحروفها المقطعة واحدة.

---

[٩] {التوبة/١١٤}

- واستهلالاتها واحدة مع بعض الفوارق.
- وموضوعاتها واحدة، وتقرأ من وجهين: وجه للنبي له أسوة فيمن سبقوه من الأنبياء، ووجه لقريش: الأنبياء منصورون لامحالة، وخصومهم مدحورون، مالكم ألا تعقلون ؟.

القصة القرآنية تولد التفكير والتغيير:

- ولعل سائلاً يسأل: القرآن كتاب هداية ودعوة، مادور القصة في الدعوة؟

ومن أجل متطلبات الدعوة أفرد الله سورة في القرآن الكريم وسماها: سورة القصص ورقمها(٢٨) ليوجه انتباهنا إلى أهمية هذه الوسيلة التربوية التغيرية في مجال البناء الإنساني، لأن القصص القرآني تطبيقات عملية ناجحة جرت على وجه الأرض في أيام قد خلت، وأشخاصها طرفان متباعدان، هم الأنبياء والصالحون والدعاة في كِفة، وعتاة أهل الأرض في الكِفة المقابلة، وينتهي معظمها بفوز الرسل والدعاة، وهلاك المكذبين، إلا في قصتين مع نبيين محمد ويوسف، لم يهلك خصومهما:

ففي يوم فتح مكة، انتهت قصة النبي بالمسامحة والمصالحة، وقصة يوسف ، انتهت بالمصالحة والمسامحة. لذلك جاءت قصة يوسف: سورة وسيرة متكاملة، وسنفصل القول في خصائص هذه السورة فيما بعد.

إن الله الذي خلق الإنسان، يعلم مواطن التأثير والتغيير فيه، ويعلم الوسائل المؤثرة فيه، ومنها القصص، لذلك يوحي إلى رسوله أمراً بالقصص، وهو ضامن للنتائج من خلال (لعل) فالرجاء القرآني-هنا- محقق ، نحو قولنا: لعل الله يغيثنا، لأنه عودنا كلما حُبس المطر، رجونا الله، لذلك يكرر

الناس " لعل " عن تجربة، وقوله تعالى:(وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ[10] فالساعة قادمة، لامحالة. وهو عكس التمني (ليت) للمستحيلات، ياليت الشباب يعود ساعة، وكذلك أمنية الكافر في زمن فاتت به الأماني: "...ياليتني كنت تراباً".

والله من فوق سبع سموات يوحي: يامحمد...!!

فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ[11] {الأعراف/١٧٦}

لقد ندب القرآن الكريم ندباً إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، أن يقص قصص القرآن، لأن القصة مدعاة للتفكير والتغيير، وقد تحقق ذلك التغيير الطويل العريض، وهو لغز تاريخي، من مكة إلى بخارى إلى الأندلس بثمانين عاما، وعلى مساحة تقدر باثنين وخمسين مليون كم٢ والمسلمون قائمون عليها إلى اليوم . وهذه النتائج لغز، حارت البشرية فيه !

وكان العلم الديني والعلم التطبيقي توأمين- سياميين- لاينفصل أحدهما عن الآخر، والعلم التجريبي يباري الفتوحات في إتساعه، إتساع مساحة الأرض، وخذ مثلاً: اكتشف المسلمون في هذه الفترة مائة كوكب، ومازالت تحمل أسماءهم في كل اللغات، كالميزان والعقرب ودرب التبانة.....

ولعل سائلاً يسأل، من أين جاء التأثير والتغيير ؟

القرآن ينفرد بميزة يصور من الداخل:

---

[10] {الشورى/١٧}

[11] {الأعراف/١٧٦}

الأسلوب القرآني يتمتع بروافد عدة من خلال تصويره للحوادث والأشخاص فيما تقع عليه العين، وينفرد القرآن عن غيره من الكتب بتصويره من الداخل مما يختلج في النفوس، كما حصل بعد غزوة " أحد "، قام المنافقون بترويج الإشاعات، يقولون:

بأن الله لم ينصركم ، كما وعدكم، فجاء الوحي بتحديد موطن العلة:" قل هو من عند أنفسكم "[١٢]. لقد نصركم الله بيوم "أحد"، ورأيتم النصر بأم أعينكم، ولكن بعض النفوس وهي داخل الصف لم تنضج إيمانياً "...مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الآخِرَةَ [١٣]... ولاتنهض الأمم بغياب المصارحة.

".... الأسلوب القرآني يمتاز بإدارته لمجموعة الروافد، كتصوير الحدث، ورسم الشخصية، والتشويق، وإتكائه على فطرة الإنسان وحب الاستطلاع، والمفاجآت التي تهز المتلقي وتجدد تركيزه، واستدعاءه للخيال عندما يترك فجوات في تسلسل الأحداث، من أجل ربطها وإكمالها من عند المتلقي، ومضامين الترغيب والترهيب غير المباشرة في ثنايا الأحداث، ولاتشعر القارئ بأنها دخيلة على النص، والتناسق بين الإطار الحاص لكل قصة مع إطار السورة مع كليات التوجه القرآني...."[١٤]

وهوية القصة القرآنية: سماوية التنزيل ، أرضية الوقائع.

---

[١٢] ٣\١٦٥.

[١٣] ...{آل عمران/١٥٢}

[١٤] بعض الأفكار مقتبسة بتصرف من كتاب: أسلوب الدعوة القرآنية، د|عبد الغني بركة.

إعادة أحداث جرت على الأرض، والذين صنعوا الحدث بشر مثلنا، يحيون ويموتون، يحاربون ويسالمون، يظلمون ويعدلون، ينامون ويستيقظون، يصدقون ويكذبون، منهم من يقوده عقله، ومنهم من يقوده هواه، ومن خلال الحبكة الفنية القرآنية استدعاء الأحداث من الغيب للحاضر، ولكأن العين تراهم، والأذن تسمعهم، واليد تصافحهم، أو تدافعهم، وكل هذه الأطراف المتباعدة تتساوق نحو الهدف المرسوم والقصد المعلوم، لتوجيه إيحائين، واحد: لأهل الدعوة، والآخر: للمكذبين بها. وما من قارئ أوسامع مهما كان وزنه أو عمره أو دينه إلا وله حظ بأحد الإيحائين.

أثر قصة يوسف في السنة النبوية.

لو تتبعنا اسم يوسف في كتب السنة ، رأيناه يتكرر كثيراً جداً، لأنه حاضر في بؤرة الشعور، مثلاً: دعا رسول الله على قومه "...بسنين كسنين يوسف..."[١٥] وقال يوماً لبعض نسائه من باب التهذيب: "...إنكن صواحب يوسف..."[١٦] وهذه أمي عائشة أم المؤمنين في محنة الإفك، شبهت نفسها بأبي يوسف – أي يعقوب- وقالت: فصبر جميل والله المستعان...

فيستوحى من هذا التكثيف اليوسفي، حضور هذه (السيرة والسورة) نصاً وروحاً في بؤرة الشعور عند الصحابة جميعاً.

سؤال: لِمَ لَمْ تتكرر قصة يوسف؟

---

١٥ أخرجه البخاري عن أبي هريرة، حديث رقم (٩٦١)

١٦ " " " "،حديث رقم (٦٦٤)

ومن يرصد الأحداث الواردة في القرآن منها يتكرر ذكره، ومنها لايتكرر، والذي لايتكرر، لايذكر إلا لمرةٍ واحدةٍ، لأن البشرية نضجت ولن تحتاج مثل هذا الحدث مستقبلاً، ونأخذ حدثين: قصة يوسف وقصة الفيل، هما سورتان وقصتان في القرآن الكريم: يوسف، والفيل، وكل واحدة انفردت بموضوعها، ولم تتكرر، ولعل السر بانفراد كل منهما وعدم التكرار، يوحي بأن الحدث لن يتكرر، إحداهما معركة: بين كبير على باطل، وصغير على حق، بين الفيل البشري (إبرهة)وجندي من جنود الله، طير الأبابيل، وفيها إيحاء:

أينما وجد الحق، وجد النصر...!

من وجد الحق ما ضيع شيئاً، ومن ضيع الحق ما وجد شيئاً، وقصة يوسف: سبع سنين للتخزين وسبع للتقنين، توحي هذه المعادلة الثابتة إلى يوم القيامة، لو مات مخلوق من الجوع، يكون من سوء الإدارة والتوزيع، وليس من غفلة الرزّاق !!

وعلل السيوطي عدم تكرار سورة يوسف، المحافظة على الحياء العام.

جاء في باب الايجاز والإطناب،" إن فيها تشبيب النسوة، وحال امرأة ونسوة افتتنوا بأبدع الناس جمالاً، فناسب عدم تكرارها، لما فيه من الإغضاء والستر "[١٧]

ولو كان الهدف هو الإغضاء والستر، لما ذكرت القصة نهائياً، ومن أين تظهر الأسوة والقدوة، ويوسف يستطيع العفاف مهما كانت الأمور ؟

---

[١٧] الإتقان، للسيوطي،ج٢ | ٦٩.

فهو حجة على كل الذين يتترسون بأعذار واهية، ولاترقى إلى عشر، عشر امتحانه، فاستعصم، وقال: معاذ الله !... أسوة وقدوة للشباب إلى يوم القيامة.

اسم يوسف داخل السورة:

ودار اسم يوسف ستاً وعشرين مرةً بنفس السورة ومرة في الأنعام:٨٤، زكاه الله بأنه من المحسنين، وأخرى بغافر:٣٤. شهد الله له أنه جاء بالبينات، ومجموع أسمائه ثمانٍ وعشرون مرة.

ولعل السر في جمع أسمائه وتحديدها في سورة واحدة، لأن مهمته مجموعة ومحددة في"مصر" وباختصاصه التخزين والتقنين، والدعوة في حياة يوسف جاءت عرضاً في ثلاث آيات فقط مع السجينين، وقد اختاره الله، واصطفاه، وتولاه، وفرغه للتخصص، فمنذ الطفولة وهي سن الدراسة والتعلم نقَّلَه الله، ونَقَلَه، من محطة إلى أخرى حتى أوصله بيت العزيز بمصر، هو بيت القيادة وفن الحكم والسياسة والاطلاع على أحوال البلاد والعباد، ويوسف يعلم دوره ومهمته، عندما قال للملك: اجعلني على خزائن الأرض، إني حفيظ عليم "كما تعرف الشمس دورها، والنحلة مهمتها بالفطرة.

يوسف اختصه الله بعلم الإدارة منذ الطفولة:

ويستوحى من سيرة يوسف:

- إعداد التخصصات المطلوبة للبلاد وهي من فروض الكفاية، وانتقاء أصحابها وانتدابهم إلى الخارج منذ الصغر.
- وكأن الله يقول لأهل القرآن: المستقبل العالمي لمن يملك فنون الإدارة، واحذروا أن يسبقكم العالم إليه.
- والعالم الإسلامي أضعف شعوب الأرض في علم الإدارة، وهم آخر القائمة، بينما العالم الفطري كالنمل عنده علم إدارة التخزين والتقنين، وبعض الحيوانات المفترسة، تدفن الزائد إلى وقت الحاجة.

سورة للإدارة، وسورة للصناعة:

سورتان في القرآن الكريم، سورة الحديد، ويوسف، تنبهان المسلمين إلى أمرين خطيرين قبل أن يتفطن لهما الناس: الصناعة، والإدارة. من يملكهما، يملك الأرض والجو، والبحر. لذلك فات الأمة الإسلامية المعاصرة خير كثير بسبب غيبة الوعي. وفي العالم الإسلامي حضر رأس المال من البترول وغيره، وغاب الوعي الإداري.

وبالادارة الحية بعض الشركات العالمية أقوى من كثير من الدول، وأول خمسمائة شركة-الآن- في العالم إنتاجها، أكثر مما تنتج الأرض براً وبحراً وجواً، بفضل الله، ثم الإدارة الحية الرشيدة .[١٨]

استنبات القيادات:

[١٨] من كتاب العولمة،د| التميمي.

إن الله يتولى الأحجار الكريمة، وقطرة البترول، وجميع المعادن في باطن الأرض منذ ملايين السنين، حتى إذا ما استوت، أخرجها للناس، كيما ينتفعوا بها، وكذلك يتولى رسله، وأنبياءه، وأصفياءه، وأولياءه قبل أن يولدوا، وقبل أن يبعثوا، حتى يأتي اليوم الذي يقومون بمسؤولياتهم، ومنها نرى كيف تولى خمسة منذ طفولتهم، وهم: يوسف، وموسى، ومريم، وعيسى، ويحيى، ومريم... ، ونموذج آخر من التولي، كما بشر بإسحاق ويعقوب – الولد، وولد الولد– قبل أن يخلقا ويولدا، عندما جاءت رسل ربنا إلى إبراهيم وامرأته قائمة ، فضحكت، وفي ضحكتها رمزية الرضا عن الله الذي قدر عليها العقم، وحرمها لذة الولد، وجاء في الحديث الشريف : " فمن رضي فله الرضا، ومن سخط، فله السخط "[١٩] والقرآن يصور نفسية المرأة العجوز، واستسلامها لقدر الله، قوله تعالى:" وَامْرَأَتُهُ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَقَ وَمِن وَرَاء إِسْحَقَ يَعْقُوبَ [٢٠]

وكل عجوز عقيم في هذا العمر الذي تحتاج فيه إلى معين حنون من لحمها ودمها، ولم تُرزقه، تكون معقدةً متذمرةً، إلا هذه العجوز التي رضيت بما يرضى به الله. فهنيئاً، لأم إسحق...

ويخلق ربك ما يشاء، ويختار، ويختص برحمته من يشاء، بما يشاء، ولايسأل عما يفعل، وهذا خطاب لمريم:" يامريم إن الله اصطفاك

---

[١٩] أخرجه الترمذي، حديث رقم (٢٣٩٦)

[٢٠] {هود/٧١}

وطهرك...[٢١].٣\٤٢. ويخاطب موسى: " قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاَتِي وَبِكَلاَمِ [٢٢].

رعاية الأطفال الموهوبين:

ولعل الله أراد أن يوجه اهتمامنا نحو تربية الأطفال الموهوبين والمبدعين الذين ستسند لهم مهام مميزة، وإعدادهم قادة وسادة منذ الطفولة، هذا يوسف لو بقي في البادية، فلايمكن أن يكون على علم بما سيسند إليه في قادم الأيام، والله قادر أن يلهمه علم الادارة والتخزين، كما أوحى إلى النحلة، علم الطيران السمتي، وعلم هندسة الإنشاءت السداسية، وعلم التحويل الكيميائي لغبار الطلع إلى غذاءٍ وشفاءٍ، وعمر النحلة الافتراضي أربعة أشهرٍ فقط. بينما الزمن الافتراضي لتعلم هذه العلوم، التي خزنها الله في النحلة،بقوله:كن، فيكون، يحتاج إلى ربع قرن من الزمان، ولكن أراد الله أن يعلمنا كيف نهيء صغارنا للمهمات الكبرى مع الإعداد لهم، وهذا موسى لو بقي بين بني إسرائيل مخبأً خائفاً، كيف سيواجه فرعون وجنوده، وهو ذليل ؟ والفرد الذليل يخاف من ظله، فأسكن الله موسى في بيت القيادة، بيت العز، وعرف خلفيات آل فرعون، ومداخيل القيادة والحكم، وعندما أمره الله أن يواجه فرعون، طلب موسى من ربه مساعداً بليغاً، لأنه عرف من خلال الاحتكاك ميزة الحديث مع القيادات أنها تحتاج إلى موهبة وفصاحة،فقال موسى راجياً ربه: " وأخي هارون هو أفصح مني لساناً،....

---

٢١ .٤٢\٣.

٢٢ ١٤٤\٧

فبشره الله، بقوله:" سنشد عضدك بأخيك .." الآية، ومع كل هذا مازال الخوف يساورهم " وقالا ربنا إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى"[٢٣]. ولو بقي موسى مع قومه لما استطاع القيام، بما قام به من مواجهة رمز الجبابرة في الأرض، لذلك احتاج موسى كل هذا الإعداد والدعم.

وهذه مريم جعلها الله في مدرسة النبي زكريا من الحضانة إلى أن أنجبت عيسى، حتى يدفع الله عنها كل تهمة، وإن كان تكوين آدم عليه السلام قبضة من التراب، ونفخة من النور، فإن تكوين عيسى عضلة من اللحم(رحم)، ونفخة من النور. ومما يستوحى من قصة مريم، إن تربية البنات تحتاج إلى شيخ الأنبياء زكريا أي منهج النبوة الحانية، فمنهج النبوة ينتج الأنبياء ، تلميذة شيخ الأنبياء وهبت البشرية نبياً !!

وأشرق نور عيسى !!

كل هذا ببركات المنهج... والمربي .

وابتلي العالم الإسلامي بمنهج الغرب التربوي من قريب أو بعيد، والذي فُرض على الناس فرضاً، وهو مغسول من الأخلاق سبع مرات إحداهن بالتراب. يا إلهي..!

لقد فار التنور بالمناهج المتبرجة...:

كم تظلم المرأة في زماننا لأن منهج الغرب يسند تربيتها، لأناس بعضهم يحتاج إلى تربية، وبعضهم يحتاج إلى دين، وبعضهم يحتاج إلى أخلاق،.....؟

---

٢٣ طه\٤٤.

والمنهج والكتاب والمسطرة والممحاة مدعومة بالتبرج، وقد تخالف المنهج الذي يدرسه الطالب، يدعو للفضيلة، والصورة المتبرجة لازمة من لوازم كل شيء حتى الأدوات المدرسية...؟

ولعل في هذا إيحاءً ضمنياً لمن يقودون العالم اليوم، هم أتباع عيسى عليه السلام ومريم، ومعظمهم أئمة في التبرج والاختلاط والعري، وهي نبوءة بأن منهجهم غير المنهج العيسوي والمريمي، ومربيهم شيخ الأباليس. وليس شيخ الأنبياء زكريا عليه السلام.

مالكم !! أتعقلون !!

وفي هذه الإيماءة المقتضبة لنماذج من التخطيط والتربية الربانية ليوسف وموسى وعيسى ومريم ...، وإعداد الأجيال وصناعة القيادات ، عبرة لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

الفصل الأول:

النص وتوزيع الآيات:

من الآية :١-٣:

تقرير بأن الكتاب من عند الله، وعدد ثلاث منن: القرآن منّة الله على العالمين، ومنة الله على العرب، ومنة الله على النبي.

ومن الآية :٤-١٠١: سورة وسيرة ومنهج.

ومن الآية :١٠٢-١١١: عظة وعبرة

.....

ونعود إلى الآيات من:١-٣.

فيها ثلاث منن من الله على الناس للذكرى واستشعار نعم الله !

الر* تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ {يوسف/١}

الر* ألف- لام- راء :

الحروف المقطعة سرٌّ دفين، وكنز ثمين:

تنتظر من يختصه الله برحمته، ولابد أن يكون من الراسخين في العلم، لعله يعلم تأويله، نحو قوله تعالى :" وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ {آل عمران/٧}

وهنا تقوم حزمة من التساؤلات حول الحروف المقطعة في أوائل بعض السور، منها:

- لماذا لم يعترض المشركون على الحروف المقطعة ؟ وهم يتصيدون على النبي كل صغيرة ؟
- ولماذا لم يسأل الصحابة عنها؟ هذا إقرار من الجميع بأنها مسلمة من مسلماتهم.
- ولماذا لم يفسرها النبي للناس؟ لأنها من مسلماتهم أثناء التنزيل، وفيما بعد، لعل الله نسّى — وهو مستبعد- هذا التأويل للحروف المقطعة من ذاكرة التابعين وتابعي التابعين، ليظهره في فترة قادمة بعد ملايين السنين، لحكمة يراها، وستكون كأنها وحي داخل الوحي، وتحدث زلزلة داخل الكفر.
- وهذه الحروف تحتاج إلى تأويل، وأهل التأويل من الراسخين في العلم، ينتظرون الفتح."وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم.." وعلم الحروف قائم منذ زمن الفراعنة، وفي مدينة

"بابل" وخبر- هاروت وماروت- في القرآن مشهور، ولهما تأثير يفرق بين المرء وزوجه، نحو قوله تعالى: " وما أنزل على الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولاَ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلاَ تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ "[٢٤] ولولا وجود ضرر السحر والساحر ، لما أهدر الإسلام دم الساحر القاتل المؤذي فقط. وهناك سحرة للقمة العيش يعزرون تعزيراً.

وكم من أسرة قائمة على أصولها، والأولاد يمرحون، ويعربدون؟ فجأةً، تلبدت السماء بالغيوم وبدأت ترسل بالصواعق فخر السقف على من فيه، وإذ الزوجان الحبيبان – بفعل السحر- كل في طريق !

إذن، في الحروف حروف وسيوف !!

وقالوا: الحرف حرف والأنفاس تختلف .

وما كل من يقرأ الفاتحة، يبرئ الأكمه والأبرص والأعمى . والفاتحة هي، هي. التي نزل بها جبريل عليه السلام، وقرأها رسول الله، وعالج بها الصحابة اللديغ، فبرئ فوراً، واستفتوا النبي، فقال لهم النبي: " خذوها واضربوا لي بسهم "[٢٥] من الجُعْل...ومن حقه هذا، لأن النبي هو الذي علمهم الفاتحة، وقبل الفاتحة- هم- لم يكونوا شيئاً مذكوراً.

---

٢٤ ٢\٨٦.

٢٥ أخرجه البخاري، حديث رقم (٥٤٠٤)

- ومن اللطائف في هذا السياق عند الشبراوي، فيما جاء من المتواتر في أحاديث بدء الوحي على النبي صلى الله عليه وسلم، أنه كان يسمع مثل صلصلة الجرس، والجرْس: الكلام الخفي، ويقال: لا يُسمع له جرْس، ولاهمسٌ. ولايوجد في القرآن الكريم مايشبه الجرس إلا هذه الحروف، وكتبها كما تلفظ، وراعى أحكام المدود، نحو:

ألف، ل اااااا م، ر اا . تلك آيات الكتاب المبين...أ.هـ

ولعله بهذه اللطيفة دنا من تأويل " صلصلة الجرس" التي جاءت في الحديث الشريف.[٢٦]

لماذا تكرر ذلك"الكتاب" أكثر من ذلك"القرآن" ؟

وقوله تعالى:

تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ

وهذه الآيات، جمع آية، والآية تكون مكشوفة للجميع: الأرض آية، والليل آية " وآية لهم الأرض الميتة أحييناها " ووجه الشبه بين آيات الكتاب، وآيات الكون الظهور والوضوح، ولو كانت مجهولة أو غامضة لاتسمى آية، وآيات الكتاب منها: الإعجازية، والتشريعية،والعقدية، والغيبية....واضحة، ولم يقم دليل علمي على بطلان آية أو ردها، والإشارة

- [٢٦] كتاب "عظمة القرآن " لعبد القادر عطا – رحمه الله- عن شيخه الشبراوي، قال ما ملخصه، ص:٤٠:

ب"تلك" لها وجهان: تعني البعد من حيث الرفعة والسو، وتعني قرب الآيات من التناول والتمحيص، و لِمَ ؟ وصف الكتاب بمبين؟ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ .

ومفردة (الكتاب) هنا، تعني القرآن المكتوب على الورق، لأن مفردة الكتاب وملصقاتها دارت كثيراً، ولها مدلولات متباينة، مرة تريد القرآن، وأخرى أهل الكتاب من بني إسرائيل، ومرة اللوح المحفوظ، ورابعة: للأجل المتفق عليه، حتى يبلغ الكتاب أجله،....

والسؤال:

لِمَ أُفتتحت أكثر السور بالكتاب أو بآيات الكتاب؟ ويندر أن أُفتتحت بالقرآن ؟ وما السر اللطيف وراء ذلك ؟

أ ل م، ذلك الكتاب لاريب فيه...البقرة

أ ل ر ، تلك آيات الكتاب المبين...يوسف

وقد جمع الله بين الكتاب والقرآن في موضعين مع التقديم والتأخير:

أ ل ر ، تلك آيات الكتاب وقرآن مبين....الحجر

ط س ، تلك آيات القرآن وكتاب مبين....النمل

وافتتح بالقرآن مرتين بصيغة القسم.

ص...والقرآن ذي الذكر...ص

ق... والقرآن المجيد....ق

لعل التركيز في افتتاحيات السورعلى ذكر الكتاب وآياته، لأن حروفه مصفوفة ومجموعة ومكتوبة بين دفتين، حساً ومعنى، بينما القرآن الذي لاتبله الماء، ماكان في الصدور.

ومن إعجازه الإبانة للجميع يتساوى الراعي والوزير في تبيين حلاله وحرامه ، كلاهما يعرف:

الصدق والأمانة والوفاء...حلالاً، ويعرفان الكذب والغدر والسرقة والزنى...حراماً، فهذا يشكل ٩٥% من الدين الإسلامي، حتى لايبقى حجة للناس على الله، كتاب مبين حلاله من حرامه للمسلم والكافر، والحر والعبد، وهاهو بين يدي العدو والصديق، كالشمس لاتفرق بين واحد دون الآخر، مُبيِّنة ومُبِينة.

بينما أي كتاب في فن واحد كالقانون أو في الفلاحة، هو وقف على أهل الاختصاص.

تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ، لِمَ ؟

عندما أنزل القرآن على أمة أميةٍ، فلابد أن يكون واضح الدلالة والهدف، ويستطيع أي فرد أن يدخل إلى هذا المورد ويملأ أوعيته، ويخرج سالماً غانماً، بينما كتب الهند، والرومان، والفرس – آنذاك- كلها فلسفة وحكم، لايستطيع إلا قلة من البشر الدخول إليها والخروج منها، لذلك تحكم رجال الدين بدينهم .

وأما اليوم فقد ارتفع منسوب الوعي في مواطن معينة عند المسلمين العرب والعجم، وغير المسلمين بحاجة للدخول والخروج للمورد، وبدون أن يتحكم أحد باختيارهم، فهو مبين للمسلم وغير المسلم. ولقد قال لي أكثر من واحد من علماء الغرب ممن اهتدوا للإسلام: اهتدوا بفضل الله، ثم بسهولة المورد، ووضوح الرؤية، وبساطة الدعوة،التوحيد، واليوم الآخر، والأخلاق الحميدة.

القرآن عربي وسره في عربيته:

إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ {يوسف/٢}

إِنَّا أَنزَلْنَاهُ في ليلة القدر.

إِنَّا أَنزَلْنَاهُ في ليلة مباركة.

والفرق بين نزل ، وأنزل: نزل بنفسه، وأنزل: هناك من أنزله، تكريماً له، وحمايةً له من الداخل، وحراسةً له من الخارج، ومن أنزله، أنزله للضرورة، إذاً لابد أن يبقى معه، وإلا كان الأولى أن يتركه ينزل بنفسه.

إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ

ويُذكِّر الله العرب بمنته عليهم، أن جعل الكعبة، والنبي، والقرآن، من خصوصيات العرب، وجعل الكعبة هي إمام بيوت الله في الأرض، والنبي إمام الأنبياء والدعاة إلى الله، والقرآن إمام الكتب السماوية ، ولو أنزله قرآناً هندياً، أو رومانياً، لتطلب جهداً جهيداً من العرب حتى يرددوا كلماته لفظاً وبدون مضامينه، فيكون الجهد المبذول كبيراً.

إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ

يمنّ الله على العرب بمنتين:

الأولى: باللسان العربي ليسهل عليهم التناول والتدبر، وهذا مثال واحد، يبين حجم هذه المنَّة. ففي دمشق –الآن– طلبة أعاجم يتعلمون حفظ القرآن الكريم، تحتاج الصفحة الواحدة لبعضهم تكراراً ما بين القراءة والحفظ (٥٠٠) مرة لصورة اللفظ الصوتي فقط، والمردود التأملي يحتاج إلى زمن طويل وعذاب أطول .

والأخرى: لها وجهان: لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ، إما للتوبيخ، وإما بشارة بمعنى الترجى، بأن القرآن سيفتح عقولكم على الكون والآفاق وقد كان ذلك.

وكلمة قرآن دارت سبعين مرة، وكلمة الكتاب درات مائة مرة، وفيها إيماءة بأن المحفوظ في الصدور، أقل من المطبوع، أو الذين يقرأون من صدورهم أقل ممن يقرأون من الكتاب.

إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ

وكتاب الله ليس حبراً على ورق، كبقية المكتوبات، القرآن روح ونور، فروحه تؤثر قشعريرة، ونوره يؤثر بصيرة، فما من كائن حي إلا وله روح يتحرك بها، وله بصيرة يمشي عليها، وكل من حوله يحسها ولايلمسها، والقرآن –الآن– يمشي وحده ويجاهد وحده، والمسلمون عبء عليه، وآلاف مؤلفة اهتدت مباشرة بروح ونور القرآن، والقرآن اليوم يمشي وحده، والناس تتهتدي به بالمئات والآلاف، والهزائم المتوالية محسوبة على المسلمين. والقرآن أمة وحده !!

قوله تعالى:" ينزل الملائكة بالروح من أمره، على من يشاء من عباده " [٢٧] ، وقال تعالى: " فالذين آمنوا به، وعزروه، ونصروه، واتبعوا النور الذي أنزل معه، أولئك هم المفلحون" [٢٨]

وتتجلى مسألة النور والروح كلغز صعب عند من ترجموا القرآن وإلى لغات عدة، لأنهم لايملكون نقل الروح والنور مع الأبنية الحرفية واللغوية، ورأيت

---

٢٧ – سورة النمل الآية رقم ٢ .

٢٨ – سورة الأعراف رقم ١٥٧ .

طبيباً أمريكياً أسلم لتوه، قال له الداعية أحمد ديدات – رحمه الله- : هل تواجه مشكلة ؟ نعم ! ماهي ؟ الذين أسلموا من قبلي، قالوا لي: لن تذوق حلاوة وروح القرآن إلا باللغة التي أنزل فيها، وتابع الطبيب القول: مستعد أن أدفع مليون دولار لمن يعلمني العربية، فنصحه ديدات إن لم يكن متزوجاً، أن يتزوج عربية، فتعلمه، وتستألفه ، فقال له: العرب لايزوجوني، فالتفت إليَّ ديدات، وقال: تزوجونه ؟ قلت: نعم..! ولكن هناك مشكلة، قال: ماهي ؟ قلت له: نحن سمر، وهؤلاء اعتادوا على (الكريستال) فضحك الجميع، وقال الطبيب: ما عندي أي مانع.

العربية شعار الإسلام والمسلمين:

ولقد تحولت الأمم والشعوب التي دخلها الإسلام – مسلمهم وكافرهم-إلى اللغة العربية وتعصبوا لها عندما التزم أهل العربية بعربيتهم وافتخروا بها، ومنهم سيبويه والبخاري و....

والقرآن عربي كيف يؤثر بغير العربي؟

والقرآن عربي وسره في عربيته، وحمل الله الحروف العربية الرحمة والشفاء، كحبات الدواء، تفعل في كل الناس بغض النظر عن أديانهم وأجناسهم ومراتبهم. لأن الذي خلق الناس، أدرى بعللهم، وأدرى بالأثر والمؤثر، أنزل لهم هذا الدواء لينفعهم، ويرفعهم. والله يعلم أنه كتاب عربي، ويعلم أنه يؤمن به من غير العرب، وأنه سيقرؤه من لايؤمن به، من عرب وغير عرب !

وتعهد الله لغير العرب بيسر هذا القرآن، والذين يحفظون القرآن ويتلونه من غير العرب أكثر عدداً، وأعمق عشقاً، وكرر هذا التعهد أربع مرات في سورة واحدة :" ولقد يسرنا القرآن للذكر، فهل من مدكر ؟" [٢٩]

وعند الفقهاء:معرفة اللغة العربية فرض واجب، لأن فهم الكتاب والسنة فرض، وما لايتم الواجب إلا به، فهو واجب. والعلاقة بين الدين والعربية علاقة بين الروح والجسد، واللغة العربية هي الجسد الذي يحمل هذا الدين، فالدين يوحد المعتقد، والعربية توحد الألسن وتقرب الناس من بعضها، وهي التي تحمل رسائل المودة والمحبة بين المتخاطبين، ولقد فطن العدو مؤخراً لهذه الوحدة، فأرجع الفارسي إلى فارسيته، والسندي إلى سنديته، و...

التحدث بالعربية تشبه بالنبي والصحابة:

ولكن بقي الجميع يقرأون القرآن بالعربية، وهي طوق النجاة الأخير في وحدة الصف الإسلامي.

ومن لطيف القول لعالم من علماء القرن الثامن الهجري في هذا السياق: " واعلم أن اعتياد اللغة يؤثر في العقل والخلق والدين تأثيراً قوياً بيناً، ويؤثر في مشابهة صدر هذه الأمة من الصحابة والتابعين، ومشابهتهم تزيد العقل والدين والخلق "

نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ {يوسف/٣}

وقد وَرَدَ في سبب نزول هذه الآيات ما رواه ابن جرير:

---

[٢٩] سورة القمر:١٥.

حدثني نصر بن عبد الرحمن الأوْدِيّ . حدثنا حكام الرازي، عن أيوب، عن عمرو -هو ابن قيس الملائي -عن ابن عباس قال: قالوا: يا رسول الله، لو قصصت علينا؟ فنزلت: { نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ } .

ورواه من وجه آخر، عن عمرو بن قيس مرسلا.أ.هـ[٣٠]

بدأ ب-نحن- للدقة والأمانة في قص المعلومة، واستدعائها من الغيب التاريخي إلى الواقع المعاش، ومَنْ غير -الله- كان شاهداً ويصور لنا قصة يوسف صوتاً وصورةً ؟

و-نحن- تعطي ثقة للمتلقي، كي يصغي، ويسمع، ويتأمل، وإلا ما فائدة القص على واحدٍ لاءٍ !

ونحن نقص الخبر، كما يقص الأثر على الأثر، وميزة القص هنا، قص الشكل والمضمون، وكثير من القص الشري يتوقف على الشكل، هيكل بلا روح، وصناع الزهر الصناعي يملكون من البراعة ما يخدعون به المتعجل بأن زهرتهم طبيعية، لكنها بلا روح، لاتجوع، ولاتعطش، ولاتذبل، وميزة القص هنا، الحياة التي تدب في أشخاص القصة، وكأنهم في بيوتنا، وكثيراً ما بكى القراء على بكاء يعقوب، وتألموا على ألمه في يوم محنته، وسعدوا يوم سعادته، وعايشوا محنة يوسف في البئر والفتنة والسجن.... وعاشوا المنحة والفرحة.

نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ: الجمع يخاطب المفرد:

---

[٣٠] تفسير ابن كثير - (ج ٤ / ص ٣٦٦)

وتبرز لغة الجمع بعظمتها -نَحْنُ نَقُصُّ- من هذا الجمع؟ ومن هذا المفرد؟ ولابن عربي -الشيخ الأكبر- معنى لطيف في هذا السياق، لكل اسم من أسماء الله الحسنى، خصوصيات وطاقات، المحيي والمميت والرزاق..... فنحن نقص عليك بمجموع هذه الخصوصيات والطاقات.

الملأ الأعلى يخاطب محمداً، هو مفرد بالذات وجمع بالعظمات والرسالات – عَلَيْكَ- وحدك، نقص زبدة القصص المؤثرة في التغيير التي طواها التاريخ.

أَحْسَنَ الْقَصَصِ

أحسن القصص لأحسن الأنبياء خَلْقاً صاحب القرآن، ولأحسن الوجوه يوسف صاحب الجب، والله يشهد لقصص القرآن بتميزها على غيرها، من قصص في تاريخ البشرية.

وكل قصص القرآن أحسن من قصص الكتب السماوية السابقة، أو قصص الشعوب، أوقصص الأساطير.

وأفعل التفضيل-أحسن-جاءت هنا، لايمكن تجاوزها، والسياق يوحي أنه عندنا قصص حسنة كثيرة وقعت على الأرض، ولكننا اخترنا للقرآن أحسنها، واجتمع الحسن القصصي بالقرآني كله في سورة يوسف، حتى تتناغم جمالية يوسف، وأخلاق يوسف، وعفاف يوسف، مع جمالية الصورة اليوسفية التي حازت شطر الجمال البشري، وهذا إعجاز في حد ذاته، أحسن القصص لأحسن الوجوه. لأن الله جميل ، ويحب الجمال، ويحرس الجمال في كل خلقه، كآية تدل على أنه واحد.

أحسن القصص لأحسن الوجوه:

وأحسن القصص من حيث الصياغة والمضامين الموجهة لقريش آنذاك، ولعالمنا اليوم، وكذلك المضامين الموجهة للنبي والدعاة من بعده، بأن الدعوة باهظة التكاليف، ولكنها مضمونة النتائج، وهذا طفل صغير-يوسف- كان كأمة في الصبر والثبات، وتتدرج به المحن والابتلاءات، ولا يملك بيتاً، حتى رغيف خبزه لايملكه، فالنجاح مرتبط بالسماء قبل أن يرتبط بأهل الأرض، ويتحقق النجاح بقدر الارتباط بالله.

نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ

ما معطيات حرفي الخطاب في هذه الآية:

الكاف، والتاء، في: عَلَيْكَ و إِلَيْكَ، وكُنتَ ؟

يوحي هذا النص بالخطاب المباشر مع محمد، ثم بالمحبة والاختصاص بأحسن القصص، وأحسن الكتب، و أحسن تعليم، وهذان الحرفان الخطابيان- كَ، تَ - يندر أن تخلو منهما آية واحدة، لذلك لم يدر اسم محمد إلا أربع مرات في القرآن، لأنه حاضر ومخاطب، فلا حاجة للنداء عليه، بينما تكررت أسماء الأنبياء بالعشرات والمئات لكونهم غائبين، ففي قوله تعالى: " وكلم الله موسى تكليماً "[٣١].تكليمة واحدة مؤكدة، ولأكثر من مرة تكون احتمالاً. بينما حروف الخطاب، كل واحد شاهد على الخطاب للنبي، والحضور له. بينما دار اسم إبراهيم تسعاً وستين مرة، لأنه غائب، وهكذا اسم موسى وعيسى... يتكرر لكونه غائباً ؟

---

[٣١] سورة النساء:١٦٤.

بِمَا أَوْحَيْنَا –إِلَيْكَ– هَذَا الْقُرْآنَ وَإِن –كُنتَ– مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ

وأوحينا إليك دون غيرك، تكريما لك بالوحي، وتكريماً لك بالقرآن، والغفلة هنا، لاتعني سهو الخطأ أو العمد، وأي سهو من هذا القبيل، فيه نقص لكمال النبي، والسياق سياق تكريم وتعظيم؟ إنما هي البراءة من كل شيء، وخلو الصدر والذاكرة مما سيقع، وكان ميلاد الوحي فجأةً، ونزل القرآن فجأةً، والغفلة يدفعها السياق أحياناً نحو البراءة،كما في قوله تعالى:" إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ "[٣٢] والغافلات بريئات خاليات الذهن من أي حدث، سيقع عليهن، ففاجأتهن الرمية والتهمة، ممن لعنوا .

وهذه إلمامة حول الآيات الثلاثة التي تتحدث عن منن الله للعرب وللمسلمين وللبشرية التي استفادت الكثير من الإسلام وإن أنكرت ذلك، فهذا شأنها، فالذين منحوا البشرية إبداعاتهم، كالكهرباء والهاتف ولقاح ضد الجدري أو الشلل أو.... من الوفاء أن تذكرهم البشرية ولاتطوي أسماءهم، وأما الإسلام الذي أنقذ البشرية من هلاك محتم، يوم كانت على شفا جرف هارٍ، لماذا تتناساه ؟ وتنتقصه ؟ وتعاديه ما وجدت لذلك سبيلاً ؟

وننتقل إلى قصة يوسف، التي أعطت البشرية آيات كثيرة، كيف كان القدر ينقله من كرب إلى كرب أشد منه، ومن حلقة إلى ما هو أضيق من سابقتها، والذين يرمونه لايعرفون لماذا رموه، والذين آووه لايعرفون لماذا آووه ؟ ولكن القدر وحده بلطفه يسير الناس، ولكن أكثر الناس لايعلمون، أنهم

---

[٣٢] سورة النور:١٢٤.

يعملون لصالح غيرهم ؟ كمثل البلبل الذي يغرد لحاجة في نفسه، لكنه لايدري أنه مسخر لإسعاد الآخرين الذين يتمتعون بصوته.

الفصل الثاني:

سورة وسيرة

من الآية: ٤ إلى الآية ١٠٠.

وتبدأ القصة بأمر جللٍ ، حاص حوله بعضم، وانصرف سريعاً، هل الرؤية اليوسفية بصرية أم منامية ؟

إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ {يوسف/٤}

الرؤيا والتأويل لايحصران في مجال النوم حصراً، ومنه تأويل الخضر لموسى على أمور وقعت جهاراً نهاراً – عليهما السلام- يوم قال له الخضر: ذلك تأويل ما لم تسطع عليه صبراً.

ونبدأ بالنحاة الذين هم حكم الساحة اللغوية، وعندهم فصل الخطاب، لم يقطعوا ببصرية رؤيا يوسف أو مناميتها، قالوا: إن كانت بصرية، فأحد عشر: مفعول به، وكوكباً: تمييز. وإن كانت الرؤية اليوسفية منامية، فكوكباً: مفعول به ثانٍ.

والمفسرون معظمهم على أنها منامية. ولكن بلا دليل قطعي، وهناك من خالفهم على استحياء.

والسياق اليوسفي خلا من كلمة منام، كما قال في خبر إبراهيم: (...قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ....)[٣٣] ، ورؤيا الملك المصري خلت من كلمة منام ، ولكنها تركت شيئاً من لوازم المنام كلمة (تَعْبُرُونَ) : أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِن كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ { /٤٣} بينما سيدنا يوسف في اللقاء العائلي في نهاية القصة، يُذكِّر والده بتحقيق رؤياه (وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا) تحقق التأويل، أو التعبير.

وهذا موسى والخضر –عليهما الصلاة والسلام– كانا يمشيان جهاراً نهاراً، وفعل الخضر بالسفينة ما فعل، وكذلك في الغلام، وفي الجدار، وبعد أن بين الخضر لموسى الأسباب التي من أجلها فعل ما فعل، ولم يصبر موسى على هذه الأحداث، لأنه لم يعرف تأويل الأحداث، فقال له الخضر: (ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا "[٣٤]

ولعل الذي رآه يوسف جهاراً نهاراً، هاله في طفولته، وسأل أباه مستغرباً كاستغراب موسى مما رآه من الخضر جهاراً نهاراً ، ويعقوب قام بدور الخضر بتأويل الحدث، ولو كانت رؤيا يوسف منامية، لاتجلب أي استغرابٍ، أو أي حسدٍ، أو أي شرٍ، والمنامات لاتستدعي التكتم ، ففي المنام قد يرى الإنسان الحق سبحانه وتعالى، أو الأنبياء، أو النجوم والشموس والأقمار كلها ساجدة ولايستغرب أحد ذلك، ولايحسد صاحب الرؤيا الحسد الذي يؤدي للقتل، والإبعاد عن العائلة.

---

[٣٣] سورة الصافات:١٠٢.

[٣٤] سورة الكهف:٨٤.

وهذا الإسراء والمعراج لو كانا مناماً، لم يحسد أحد من قريش النبي عليه، ولم يُثِر ثائراً نحوه، ومثله نزول الوحي على رسول الله، لو كان مناماً، لبقي كل شيءٍ ساكناً. والله تعالى أعلم. ولا أعلم أحداً أضاء هذه الناحية.

وفي هذه الرؤيا المبكرة ليوسف، عدة معطيات، منها:

- بشره الله بالمكانة العليا، وسيخضع له إخوته الذين هم ينتظرونها وقد فاتتهم، وسيسجد له أبوه، وهو نبي، ومادونهم من البشر.
- مادام يوسف استلم نتيجة النجاح الأخير، فلن يبالي بكل العقبات التي ستقف دون النجاح.
- بدل أن يرى أحد عشر حاسداً حاقداً على هيئة وحش مفترس، رأى أحد عشر كوكباً، وكل إناء بما فيه ينضح. رآهم من خلال نفسه النيرة، وليس من خلال واقعهم .

يوسف استلم المنحة، والمحنة مخبأة بداخلها لم يعرف عنها شيئاً بعد:

يعقوب رأى المنحة، والمحنة...

والأنبياء ينظرون بنور الله، فيعقوب رأى المنحة، والمحنة، وبدأ بالمحنة فوراً، واستنفر لها، وقال لولده: ستبدأ نار الحسد عند إخوتك إذا شاع خبر سجودهم لك، هذا يعني أنه الوارث لسلسلة النبوة من دونهم، وكانوا ينتظرونها جميعاً، وفاتتهم، كما فعل يهود المدينة بظهور محمد الذي حاز على النبوة، وتحولت النبوة من اليهود إلى غيرهم على حد زعمهم.

وأول مطالب يعقوب التكتم على الأمر، والتحذير مما هو منتظر من إخوته.

قَالَ يَا بُنَيَّ لاَ تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ {يوسف/٥}

والحذر لايمنع القدر، وازداد عكوف يعقوب على الولد الموهوب لذلك يكرر: يابني....

ومرة ينتقل بدافع الحب إلى الأمر والنهي: لاتقصصْ....، ولماذا التحذير من إخوته دون غيرهم؟ ولو قص رؤياه على غيرهم لايمكرون به، لأنهم لاينتظرونها.

فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ

وجاءت كيداً نكرة لتشمل كل أنواع الكيد الذي يتاح ليلحق الأذى بيوسف، ولماذا استحضر يعقوب الشيطان إن شاع الخبر؟ لأن يعقوب استحضر احتفالية الملأ الأعلى بآدم عليه السلام واجتباء الله لآدم عليه السلام، من دون غيره، ما لم يحصل لنبي أو رسول، ما حصل لآدم من الخصوصيات والتكريم، فآدم خلقه الله بيده، وسماه آدم، وأسجد له الملائكة، فأبى الذي في قلبه مرض أن يسجد، فبدأ كيد الشيطان بنار الحسد التي اشتعلت في كبده، وبعدها، بدأ بالوسوسة لآدم، حتى عصا آدم ربه، فغوى، ثم تاب الله عليه، إنه هو التواب الرحيم.

ويعقوب بدأ يهيئ ابنه للمراحل القادمة، بتفصيل المنحة والاجتباء والتعليم والنبوة لابنه يوسف.

يعقوب: تشوف حجب المستقبل.

وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ {يوسف/٦}

والسؤال: من أعلمَ يعقوبَ بهذه الأمور المستقبلية التي تنتظر ولده؟ من الاجتباء والتعليم والنبوة... ويتكلم يعقوب كلام الواثق المتيقن ؟ إنه نور النبوة، يرى ما لايراه الآخرون !

وفي نهاية المحنة يكشف يعقوب عن ذلك بقوله: " قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيَ أَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ "

ويعقوب يبشر ابنه أنه صار في عِقْد السلسلة الذهبية العائلية النبوية، سلسلة آل إبراهيم، و النبي شهد لها بكرم الفرع والأصل، وجاء في الحديث الصحيح، عن أبي هريرة، قال: قيل يا رسول الله ! من أكرمُ الناس؟ قال: " أتقاهم" قالوا ليس عن هذا نسألُك. قال: "فيوسفُ نبيُ اللهِ، ابنُ نبيِ الله، ابنِ نبيِ الله، ابنِ خليل الله..."[٣٥] والله يجتبي إليه من يشاء، ويعلِّم من يشاء بما شاء، ويهدي من يشاء، ويعز من يشاء،... حروف الخطاب للقرب الحسي والمعنوي.

يَجْتَبِيكَ، رَبُّكَ، وَيُعَلِّمُكَ، عَلَيْكَ، أَبَوَيْكَ، رَبَّكَ.....

---

٣٥ – صحيح مسلم، كتاب الفضائل، ٤٤، رقم الحديث:٢٣٧٨.

وكاف الخطاب حضر – بهذا الحديث السري والودي– ست مرات،في حديث سري وديٍ هادئٍ بين أب وابنه، لقرب الأب من ابنه، في المجلس وفي المودة، ولذلك كثرت حروف الخطاب (الكاف، والتاء،...)

وهذه الحروف الخطابية كثرت في القرآن عند مخاطبة رسول الله، للدلالة على القرب الحسي والمعنوي، وانظر هذا التكثيف وما فيه من الدلالات، في القرآن: " ألم نشرح لكَ –يامحمد– صدركَ –يامحمد–...فإذا فرغتَ – يامحمد– فانصب – يامحمد– وإلى ربك . يامحمد_... ألم ترَ – يامحمد– كيف فعل ربك –يامحمد–، بأصحاب الفيل...

ولقد اجتبى الله يوسف من بين البشرية، ومن بين إخوته، وعلمه عن طريق الوحي من تأويل الأحاديث، وأسكنه في قصر العزيز، فتعلم أصول الإدارة وفن الحكم، وعلمه كيفية التعامل مع المستوى العالي لهذه الطبقة المخملية من المجتمع، ثم أنزله إلى السجن حتى يعلمه كيفية معالجة أوضاع أدنى الطبقات الاجتماعية المظلومة والمطحونة والمتمردة على الواقع....، ولوبقي في حضن أبيه يعقوب،لم يطلع على شيء من هذا، ولو أبقاه في قصر العزيز، لم يطلع على طبقة المجتمع داخل السجن، والسجين هو المريض نفسياً واقتصادياً....

التظالم العائلي كان، ومازال، وسيبقى...

وهذا أحد أهداف قصة يوسف فيها صورة لتقطيع الأرحام، وتوصيلها.

لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ {يوسف/٧}

التظالم العائلي كان، ومازال، وسيبقى، لأنه منطقة احتكاك، وقد فعلها من قبل ابنا آدم عليه السلام، وهما لا عم ولاخال لهما، حتى يأخذا من جيناته، وأحدهما يجري الشر في دمه، والآخركأنما صنع من النور، والوضع الأسري العام قائم على هذه المتباعدات، وليس الاستغراب من اشتعال النار في أي لحظة، ولأتفه الأسباب، ولكن الاستغراب إذا لم تطفأ النار، وأسوأ نار هي نار الفتنة العائلية، فأراد الله أن يقدم للبشرية نموذجاً للشر والأذى والظلم من إخوة يوسف، وأن يقدم نموذجاً للصفح والتسامح وتناسي الجب، والعبودية، وفتنة القصر، والسجن، وكربات الغربة، بقوله:" لاتثريب عليكم اليوم " في سبيل لم الشمل العائلي .

بلا حساب ! ولا عتاب !

ولقد يقع قتيل بين أبناء عمومة، أو بين الجيران ويصطلحون قبل الدفن ، أوعلى القبر، ويتسامحون، ويتصافحون....أو يفقدون الصواب فيُقتل من يُقتل من الطرفين، وبعد أن يهلك الناس، كلهم، ينادون: الصلح....الصلح.... ولكن بعد خراب البصرة !

وهنا يوسف يعلم الناس اختصار الطريق .

وينتقل النص يصور لنا إخوة يوسف، وهم يتناجون بالإثم والعدوان، وقد أسلموا أمرهم للهوى والشيطان.

إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ {يوسف/٨}

وهم يعترفون ضمناً أن أباهم يحبهم جميعاً، بقولهم: " أحب" أفعل التفضيل، ولكن زاد في حبه للصغيرين، ويعقوب نبي وعادل فيما يملك، ولكن الحب فوق الطاقة البشرية، كونه معنوياً، فلايملكه الإنسان حتى يقسمه بالذرات.

وكان على أبيهم- كما يريدون- أن يقدم أولاده الكبار، لأن فيهم من يدفع، وينفع، وأن يقدم القوة والعصبة على الضعيفين، وفي قولهم: " نحن عصبة " فيها رائحة العصابة، وميزة العصابة أنها دائماً على حق، والحق ماترى هي، وماتريد. وكل من يخالفهم فهو في ضلال مبين، ولو كان المخالف يعقوب، ولو كان نبياً. وهذا حكم العصابة عليه.

عقوقان: عقوق البنوة. وعقوق النبوة.

إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ

في قولهم هذا وحكمهم على أبيهم عقوقان: عقوق البنوة والنبوة ليعقوب، وعقوق الأخوة والنبوة ليوسف:

وقد لعب الشيطان في الصدور، واستوت لعبته وقامت على سوقها، وبدأت الفتنة تشتعل بالسدى واللحمة في الحصير الأسرية عوداً عوداً...

وكان القرار الأخير:

اقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُواْ مِن بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ {يوسف/٩}

وقالوا بفم واحدٍ: اقتلوه بأي وسيلة، أو اطرحوه في مكان بعيد لايعرف طريق العودة لصغرسنه، ولاعنوان أهله، فيضطر الأب بعدها إلى خدماتهم وإلى مودتهم ومع الأيام سينساه، وهم من بعدها سيتوبون، وإن الله تواب رحيم.

والتوبة المسبقة – هنا– جزء من مخطط الجريمة:

وهذا مايفعله كثير من الناس، عندما يخططون لجريمة أو مفسدة أو مظلمة... ويرصدون لها توبة، توبة لاتتعدى اللسان، ولاتعيد المظالم إلى أهلها كالأموال، وهم قادرون على ذلك.

وهم في حالة تردد واضطراب، وأقلهم شراً يطرح رأياً....

قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لاَ تَقْتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ {يوسف/١٠}

قال أمثلهم: من هو؟ ولماذا نكر؟ ولوكان يستحق الذكر لذكر، ولو قال خيراً، أو خالفهم الرأي، عندها يستحق الذكر والتعريف به.

ويأمرهم بإلقائه إلقاءً في الجب، قد يموت، وقد يتحطم، وقد تلتقطه بعض القوافل، ويبدو أن الجب، من الأقنية، أو السراديب، أو الأنفاق التي تجري بها الماء، ويكون على حافتيها مكان يابس، ولصغر سنه لايستطيع الخروج منها. ولوكان الجب كالآبار الشاقولية سيقاوم في الماء ساعة أو بعض ساعة، ثم يهلك ، فيموت.

وإذا أردنا أن نعرف قسوة قلوب إخوة يوسف، لسبب نبوته ونورانيته، علينا أن نعرفها من خلال من يدَّعون من الغرب أنهم منهم، ويعيشون معنا على هذا الكوكب، همهم قتل كل من عنده شيء من ميراث يوسف، وإطفاء كل مصباح إيماني أوقده يوسف أو من جاء من بعده من الأنبياء، ويبقى العالم الغربي مقاتلاً ومعادياً للإيمان إلى يوم القيامة. وهذا مثال :

بعد غزوة نابليون لمصر،جرت | ٣٣٣ | غزوة للعالم الإسلامي:

ولعل العالم الغربي – أبناء الفرنجة- كلهم، من أبناء قتلة يوسف، لأن القتل والاقصاء للجنس البشري يمشي في دمهم، وإن لم يجدوا ما يقتلون، قتلوا بعضهم في حربين عالميتين، والحرب الثالثة قائمة على الإسلام والمسلمين من بعد غزو نابليون بونابرت لمصر ولبنان عام ١٧٩٨م- حتى عام ١٩٩٤م غزا الفرنجة العالم الإسلامي (٣٣٣) غزوة.[٣٦]

وبسببهم الآن ملايين من المسلمين صاروا مشردين، ومسجونين، ومقبورين... ومطاردين. ونار الفرنجة مشتعلة في معظم بلاد المسلمين.

ولكنها حرب بالتقسيط، وكل عقد من الزمان يفتحون جرحاً جديداً في جسد الأمة، في بلد ما .

لقد انتهت عصبة يوسف من التخطيط وبدأوا بالتنفيذ، وأول شيء إقناع الأب المتشكك منهم لأسباب لم يفصح عنها، أو لسان حالهم قال مافي نفوسهم: يا أبانا مالك لاتأمنا ؟ كاد المريب أن يقول: تعالوا، خذوني.

قَالُواْ يَا أَبَانَا مَا لَكَ لاَ تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ {يوسف/١١}

بفم واحد، وبدون تردد..

لماذا كرروا" ياأبانا" ولم يقولوا: ياوالدنا مرة واحدة؟

يَا أَبَانَا مَا لَكَ لاَ تَأْمَنَّا

استفهام إنكاري، يتضمن الإلزام والاستسلام لما يريدونه منه.

وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ

---

٣٦ كتاب العولمة، د | التميمي، ص:٣٠٧.

ولماذا قالوا: ياأبانا، ولم يقولوا: ياوالدنا، ولو من باب تنويع الخطاب، توحي بأن العلاقة بينهم متيبسة ؟ وفي سورة يوسف تكررت كلمة " أب" بملحقاتها من الضمائر خمساً وعشرين مرةً،

ناصحون ؟ ولم يقولوا: حافظون ؟ والسياق يستدعي حافظين، حتى يكونوا ملزمين بما تعهدوا به. والله وصف هذا النموذج المتموج من خلال سمت وجوههم ولحن القول وليّهم للكلمات، فقال: " فلتعرفنهم بسيماهم، ولتعرفنهم في لحن القول "محمد\ ٣٠. وهاهم يأمرون أباهم أمراً

أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ {يوسف/١٢}

تطورت اللهجة، وصاروا، يأمرون أباهم أمراً... أَرْسِلْهُ... أرسله أنت وعلى مسؤوليتك، ولماذا غداً ؟ وليس في يوم آخر؟ ضاقت صدورهم بالأمر، يرتع بخير كثير، ويلعب بعدها حولنا، وإننا مراقبونه.

قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَن تَذْهَبُواْ بِهِ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ {يوسف/١٣}

يعقوب رفع راية الحزن المؤكد بمؤكدين: إنَّ، واللام، وذهابكم به إلى الأبد، وكان السياق (سأرسله معكم، خذوه معكم) فعدل عن هذا، وتحول إلى مفردة الذهاب واللاعودة، وفلان ذهب مع الريح، أي لن يعود، كما في قوله تعالى:"إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ"[٣٧] {إبراهيم/١٩}

يعقوب حزين وخائف، والحزن يأتي بعد الواقعة، إلا حزن يعقوب بدأ قبل أن تقع الواقعة، وكأن يعقوب تشوف البلاء، واستسلم للقدر، وللأنبياء

---

[٣٧] سورة إبراهيم، ١٩.

خصوصيات وشفافيات قبل الحدث، يعقوب حزين عليه من أن يذهبوا به وراء الشمس !

قَالُواْ لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَّخَاسِرُونَ ﴿يوسف/١٤﴾

قالوا، وتعهدوا بالخسارة إن أكله ذئب واحد، وإن أكلته الذئاب البشرية بالجمع، فلايخسرون. ولايضمنون.

إِنَّا إِذًا لَّخَاسِرُونَ

والخسارة المرادة هنا تنصرف مادياً، وتنصرف معنوياً ، أي يأكله من بيننا ونحن عصبة علامة على فشلنا.

فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِ وَأَجْمَعُواْ أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ {يوسف/١٥}

لماذا طُوي كثير من تفصيلات الحدث ؟

وقال: ذهبوا به، كما يذهب النهر بالصندوق محمولاً مندفعاً إلى المصب، وتوحدت نيتهم مع فعلهم، أن يغيبوه بالجب، والقرآن طوى كثيراً من التفصيلات بقصة يوسف، ومنها مواقف عاطفية حاسمة، كهذا الموقف: ماذا قال لهم يوسف عندما ألقوه ؟: هل بكى؟ توسل ؟

والقرآن لم يسجل لنا موقفاً ليناً ليوسف،هوطفل في مقاييس البشر، وعظيم في مقاييس القدر، ولحظة إلقائه في البئر، هي لحظة إسعاده، فانتفى البكاء، وإن لحظة إلقاء إبراهيم في النار، هي لحظة أعظم أعياده. فهذه النخبة البشرية لها خصوصيات في الملأ الأعلى.

وهل في هذا أسلوب تربوي لشد القارئ فيدخل في الحدث بنفسه، ويرسم بقية الصورة المتخيلة إليه ؟

وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ

والوحي أنواع: وحي للأنبياء، وهو غير وحي الصالحين كمريم، ووحي لأناس عاديين كأم موسى، ووحي للحيوانات كالنحل...

وأوحي إلى يوسف وهو طفل، وأوحي إلى عيسى لحظة ولادته، فتكلم، وقدم برنامج حياته ومسؤولياته مستقبلاً، وهذا ما خفف الصدمة على مريم، والواقع المستقبلي لعيسى أثبت ذلك.

وأوحى إلى يوسف برنامج حياته ومسؤولياته، وهذه الإيحاءة هي اللطف الإلهي، وهذا ما خفف عليه صدمة الأخوة، وصدمة الظلم، وصدمة الغربة، وصدمة العبودية...ورفعه فوق أحزان الطفولة، وربط على قلبه، حتى صار من أندر أهل الأرض لباً وقلباً.

ويستوحى من لحظة تزامن انقداح الحدث مع اللطف الإلهي بمن وقع الحدث عليه، حتى لايحمله الله فوق طاقته، اللطف والبلاء كجناحي طائر يصلان في لحظة واحدة،وهذا إبراهيم تزامن إلقاؤه بالنار مع اللطف: يانار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم، وتزامن إدراك فرعون لموسى مع اللطف: قلنا اضرب بعصاك البحر... ويحصل لعباد الله الصالحين الكثير من هذا، ويحصل لأناس عاديين...

وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ

وكل ما أوحي إلى يوسف في لحظة إلقائه في البئر من برنامج حياته ومستقبله ،" قد جعله ربي حقاً " هذا ما أعترف به يوسف لحظة اجتماع الأسرة في خاتمة الأحداث.

وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ

وإخوة يوسف ينزلونه إلى قاع البئر، والله يرفعه إلى عرش مصر، هم يقطعونه، والله يصله، هم يميتونه والله يبقيه، ويحييه، وهم لايشعرون أن لطف الله: قاب قوسين أو أدنى،وهم لايشعرون، أنهم قربوا يوسف من الله ! هم يمكرون، ويمكر الله، والله خير الماكرين .

وَجَاؤُواْ أَبَاهُمْ عِشَاء يَبْكُونَ {يوسف/١٦}

ولماذا عشاءً ؟

كي يصعب على يعقوب الخروج والبحث ليلاً، ولو وجد مكان الجثة لايستطيع التعرف على البقايا من أصبع أو شعر أو خرقة، وعادوا عشاءً دليل على قرب المكان، أو أنهم تأخروا قصداً، أو ارتبكوا، وبدأوا يبكون عندما جاءوا أباهم، وهو بكاء مكر ودهاءٍ، وجاءت امرأة إلى شريح القاضي وعنده الشعبي، فذكرت شكواها، وأجهشت بالبكاء، فرق لها الشعبي، وقال لشريح: المرأة تبكي، فقال شريح: وجاؤا أباهم عشاءً يبكون.

وما أكثر الذين يقتلون القتيل، وهم أكثر الباكين عليه، وهذه مناحة العالم الغربي على الإنسان والإنسانية، وهم من أكثر البشرية فساداً وحصاداً للإنسانية.

قَالُواْ يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لِّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ {يوسف/١٧}

يتلطفون بأبيهم كلاماً: ياأبانا، وهذا من البر الشكلي، ومثله من يقبل يدي أبويه، ولو رآهما مائة مرة في اليوم يقبلهم، ويسلم عليهم، مما يجامل به بعض الأبناء الآباء، ولو سأله الأب درهماً، زعم الإفلاس، والواقع العملي كثير من الأبناء يبرون آباءهم، ولكنهم يقطِّعون إخوتهم، وأرحامهم، وأي بر جزئي هذا.

وحجتهم واهية بأنهم ذهبوا يستبقون، يستبقون على ماذا ؟ على من يلقيه في البئر؟

فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ

فأكله الذئب كله ولم يترك رأساً أو أصبعاً...ما هذا إلا إفك مفترى، قاتل الله الظالمين، أنى يؤفكون !

وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لِّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ

يكاد المريب أن يقول: تعالوا خذوني. وليس أنت مستأمن منا أصلاً، وحالياً ليس بمصدقنا، قالوا: وإن كنا، كينونة عامة، ولم يجزموا بصدقهم، أقسموا قسماً..! نحن صادقون... فلتعرفنهم بسيماهم وهم يبكون، ولتعرفنهم في لحن القول وهم يقسمون.

وَجَآؤُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ {يوسف/١٨}

ودم القتيل يخرج بنفسه إلى الثياب،بينما ثياب يوسف بدأت تبحث عن دم لها، وأي دم ؟ ولماذا القميص فقط ، وأين بقية الثياب؟ وهل أُكلت مع الثياب ؟ وأين البقية الباقية من جثتهِ، ومن شعره، أو أصبعه...

الذئب يطبق : يستغفر الإناء للاعقه !

يبدو أن هذا الذئب أراد أن يطبق الحديث الشريف: يستغفر الإناء للاعقه! لذلك لم يترك أثراً ليوسف.

وطوى القرآن تفصيلات منها: ما البقية الباقية من الثياب على جسد الطفل،وهل بقي عارياً ومكشوفاً أمام البرد؟ وترك للقارئ يتخيل الطفل الخائف العاري، ويتخيل هذه العصابة التي قُدت قلوبها من الحجر، والعالم كله يشهد قسوة قلوب الذين يزعمون أنهم من ذرية هذه العصابة. ويشهد العالم كم حصدوا من بعضهم في حربين عالميتن؟ ويشهد العالم تحقيق نبوءة القرآن باغراء العداوة بين بني إسرائيل، والذين من ذرياتهم ؟.

وَجَآؤُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ

وماذا يفعل يعقوب بالقميص؟ حضر القميص وغاب يوسف، وهذه مقارنة بين الولد العاق الفاسق، الذي أحضر القميص مملوءاً بالنكد والعمى، وبين الولد البار الصالح الذي سيرسل القميص مملوءاً بالشفاء والنور، وكم هم الأولاد الذين ينكدون آباءهم، ويهلكونهم قبل أوانهم؟ وكم هم الأولاد الذين يسعدون آباءهم ؟

إنهم ندرة، لذلك عزَّ وجودهم، ونسبتهم نسبة يوسف لإخوته، حتى يعثر الواحد على مثل يوسف من بين هذا العدد. لقد انتهت رسالة القميص الأول.

وسيأتي القميص الثاني الذي يشهد على براءة يوسف، ثم يأتي الثالث الذي يشهد على صلاح يوسف ونبوته. وسنفصل القول في مواضعه.

قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا

الأنبياء والمؤمنون ينظرون بنور الله، ففتح الله على يعقوب واخترقهم، فقال: زينت لكم أنفسكم أمراً منكراً...، وأمراً ما غير الذئب، ونكر-أمراً- كأنه متنبئ أنه سيقع على ولده مكروه، ولكن لايستطيع تحديده.

الصبر الجميل، والصبر المرّ:

فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ

الصبر الجميل هو الاطمئنان على النتيجة، وصبر الأنبياء غير صبر العامة، لأن الأنبياء يرون الطرفين من الحادث، يرون الحادث، ونتيجة الحادث، كفعل الخضر بخرق السفينة في سورة الكهف، ونتيجة الحادث، سلمت السفينة من استيلاء الملك عليها، وهذا يعقوب لم يصدقهم، ولم يجزع جزع الفاقد الحقيقي، والقميص المضرج بالدم الكذب بين يديه، ولكنه جزم بوقوع ماكان يخشاه، وقد جاءه البلاء على الكِبَر، كما جاء البلاء إلى أبيه إبراهيم على الكبر، وجاء البلاء يوسف على صغره كما جاء إلى عمه الذبيح إسماعيل على صغره، ونتائج السلامة مضمونة، ولكن يحتاج المبتلى الصبر الجميل، ولا يوجد صبر جميل، وصبر مرٌّ، وحلوٌ، ولقد سماه الصبر الجميل لأنه عرف السر، كصبر المرأة على الحمل والولادة، وصبر المقاتل على الجهاد، وعند يعقوب صبر جميل لأنه مطمئن على النتيجة النهائية منذ رؤيا يوسف، وأخذهم بظاهر أقوالهم ببرودة شديدة، وترك ضمائرهم لله، فقال : والله المستعان على ما تصفون، وليس على ماتفعلون...

لأنه لايريد الدعاء عليهم، فيهلكهم، وهنا تبرز الأسوة والقدوة عند يعقوب في الصبر على الأولاد العُقُق، وهم عشرة يتظافرون على جرح كبد أبيهم، وهو أبوهم ونبيهم !!

وهذه أخلاق النبوة، وشعار رسول الله مع قريش: اللهم اهدِ قومي، فإنهم لايعلمون .

وبعض الدعاة في زماننا بيوتهم مهزوزة من الداخل من كثرة ما يرعدون ويزبدون، وبعض أولادهم، يفرون منهم، ويأوون إلى جبل يعصمهم من أبيهم، لأن بين جنبيه كبداً فظاً وقلباً غليظاً، فمن يرسب في المرحلة الابتدائية، فمن المستحيل أن ينجح فيما بعدها، وتبقى الأسرة للدعاة هي مرحلة التدريب الأولى، فإن نجح الداعاة مع الجانحين من أولادهم وردوهم إلى الهدي الرباني، يهيؤن للعمل الدعوي مع أولاد الناس، وإلاّ، فلا... وتحول النص إلى الجب وخروج يوسف منه .

يوسف لأنه بدوي نحيف خرج بالدلو:

وَجَاءتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُواْ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلاَمٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً وَاللّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ {يوسف/١٩}

ومرّت قافلة تركب الطريق، فأمروا الساقي أن يأتيهم بالماء، فجاء واردهم – مفرد– فأدلى دلوه، فعقدت المفجأة لسانه، فخرج بالدلو غلام، وغلام كالقمر.

سبحان من يخرج الحي من الميت، وقد خرج بالدلو لصغر سنه، ونحولة جسمه لأنه من أبناء البادية طعامهم الحليب والتمر، ولوكان حضرياً يأكل الكبب والمحاشي، تفتق من اللحم والشحم، وتشرم الدلو وتقطّع الحبل.

والنص غيّب عنا وصف حالة الطفل من جوع وعري وبرد وخوف، وكم بقي في البئر؟ وكأنه ترك لخيال القارئ فرصةً، كي يدخل بنفسه إلى قلب القضية، ويصبح جزءاً منها.

قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلاَمٌ

وكان الساقي وحده فقال: يابشرى هذا غلام، فأبدله الله من ماءٍ تمده بالحياة ليوم أو بعض يوم، فجاءه بغلام جمع فيه الجمال والحياء والعفة والدين والنبوه، غلام سيرته معطاءة كجب زمزم، يسقي الضمائر والقلوب والعفاف والحياة....وهو أول جبٍّ يهب البشرية نبياً.

وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً

يوسف وسط القافلة وهم بين أخذ ورد، وأجمعوا أمرهم أن يبيعوه عبداً، وبذلك يخالفون الفطرة الإنسانية، والعرف السائد آنذاك، وإلا لماذا خبؤوه ؟

ولعلهم سألوه عن اسمه وأهله ومنزلهم وكان قريباً من البئر، لأن إخوة يوسف عادوا عشاءً وبنفس اليوم.

وَاللّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ

والله عليم بهذا السلوك المعوج من أهل القافلة، ولكنها مرحلة من المراحل التي سيمر عليها يوسف، وقد حدد القدر زمانها ومكانها، والعناية الإلهية تتدرج بيوسف من مرحلة إلى أخرى أعلى من سابقتها، وهي أهم، وأشق، فهاهو من حضن يعقوب، إلى يد العصابة، إلى جُبٍّ كجوف حوت يونس، إلى بشاشة الساقي، إلى عصابة عابرة للقارات، إلى قصر العزيز، ثم السجن، ثم عرش مصر.

وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ {يوسف/٢٠}

ولعل زعماء القافلة شروه من ساقيهم، وأجيرهم ، فأخذوه بأبخس الأثمان، وبعد أن تملكوه قبض الله صدورهم من هذه الجريمة البشعة، فضاقوا به ذرعاً،

وكان همهم أن يتخصلوا منه، لأن جماله يوحي أنه من بيوتات كبيرة وعظيمة، فقالوا في أنفسهم: كنز ثمين، ولغم دفين...

وكان لهم ذلك، فباعوه لصاحب المرحلة الأخيرة، وهو عزيز مصر الذي اشتراه.

يوسف يدخل مدرسة الاعداد القيادي:

وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَاللّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ {يوسف/٢١}

دخل يوسف مرحلة الإعداد القيادي من خلال بيت العزيز وضيوفه ومكانته في الدولة .

وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا.

لقد اخترق عزيز مصر بفراسته القيادية والريادية، هذا الطفل الذي يتقطر الجمال والكمال والوفاء والحياء من أردانه.

أَكْرِمِي مَثْوَاهُ

فقال لامرأته: وسعي وأحسني له في السكن والمأكل، وميّزيه عن كل الحاشية، سننتفع منه الآن، ومستقبلاً نقرر أن يكون ولدنا أم لا، ومن خلال سلوكه، نحكم عليه.

ومن خلال هذا السياق يبرز ملحظ دفين، بين العزيز وامرأته لعدم وجود الذرية، وهناك في الخفاء أمور سرية، كانت سبباً في ضعف المودة الزوجية، أحدهما عقيم، فالقرآن ينقل عن العزيز بأنه قال "لامرأته"، ولم يقل

"لزوجته"، ولدى مقارنة ذكر الزوجة والمرأة في القرآن، يأتي ذكر الزوجة في الحياة الزوجية الحقيقية القائمة، بينما ذكر المرأة يأتي في سياق، الحياة العائلية المهزوزة بسبب المعتقد أو السلوك أو الشيخوخة، كامرأة نوح ولوط مع قرب الفراش وتباعد في السلوك، وامرأة إبراهيم التي ضحكت، لقد جمع الله بينهم في الفراش والمعتقد، وباعدت بينهما الشيخوخة.

ويوحي السياق بين عزيز مصر وامرأته تباعد في السلوك و المودّة...

وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ

ودخل يوسف مرحلة التمكين في الأرض في بيت العزيز وفي مدرسته و مجتمعه، مجتمع الادارة والقيادة والسياسة.

وقد فطن بعض خصوم السلطنة العثمانية لذلك، وطبقوا نفس المبدأ، عندما بدأوا يلقون كل غلام جميل يوم ولادته عند الفجر أمام أبواب الأمراء العثمانيين، وأثناء مرور الأمير لصلاة الفجر يُدخل الطفل إلى قصره، ويتبناه تربوياً، ويسلمه فيما بعد مركزاً قيادياً، عندها يتصل به رجال الدهاء والخفاء، ويخبرونه بخبرهم، وينفذ لأهله ما يريدون.

وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ

وهب الله الناس كل الناس القدرة على التعلم، وهي مسألة كسبية، وهناك من يختصهم برحمته، فيعلمهم من لدنه علماً، وكل العلوم من لدن الله، كما علم النحل والنمل، والمواليد الرضع من الساعة الأولى، كيف يمسكون الحَلَمَة ؟ ولو اجتمع أهل الأرض جميعاً على أن يعلموا العجل كيف يمسك الحلمة، ولايسمح للهواء بالدخول، حتى تتم عملية الامتصاص، لعجزوا ؟

وَاللّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ

والله بالغ أمره، سبحانه ! إذا قضى أمراً، فإنما يقول له : كن، فيكون.

وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ

ولكن أقل الناس يعلمون نتائج النبوة والدعوة هي النصر لامحالة، كالأنبياء والرسل، والعلماء العاملون، يعلمون إن الله يرسل النبي أوالرسول وحيداً على قومه،أو إلى أهل الأرض جميعاً، كما هو الحال مع رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم، وتمر الدعوة بمراحل ثلاث بداية يهزأون من النبي، ثم يتطور الأمر معهم فيقاتلونه، والنتيجة منهم من يسلمون، ومنهم ينهزمون، أو يقتلون.

النص انتقل من مرحلة الطفولة إلى المراهقة.

فترة المراهقة فترة للإبداع:

وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ {يوسف/٢٢}

وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ

ولما بلغ يوسف السعي كإسماعيل وتحمل المسؤولية، ولعلها فترة المراهقة، وهي فترة الطموح والإبداع، ولقد استثمر إبراهيم ولده إسماعيل في هذه الفترة ببناء الكعبة، ونبه الأمة إلى استثمارها عند المراهقين في المهام الصعبة، و هذا رسول الله يستثمر مرحلة الطموح الشبابي، عندما نصب الحب ابن الحب: أسامة بن زيد بن حارثة –رضي الله عنهما– في سنة: ١١هـ وزيراً للحربية وعمره دون العشرين. ووجهه إلى غزو الروم في تخوم بلاد الشام[٣٨]، يعلمنا اقتطاف فترة الطاقة المبدعة، كما تفعل الطيور عندما تأخذ رأس

---

[٣٨] صور من حياة الصحابة، عبد الرحمن الباشا،ج٣ | ١٤٢.

الوريقة من النبت البازغ الأصفر اللون، وفي مرحلة تحوله نحو الأخضر، تأخذ أعلاها فقط. وكأنه (عود كبريت) الطاقة في رأسه.

. ولكن الأمة في حال تراخيها وتلينها وقابليتها للانبطاح ، والتي لم تعد تكف يد لامس، لأنها ضيعت الطاقات المبدعة في ملاعب الكرة، وصالات الفنون . وباتت تكرم من كانت مواهبه في قدمه أو في خاصرته. ومن أراد أن يتعلم الرقص، عليه أن يبدأ بالهزة الأولى، والباقي يكمله الشيطان !

آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا

ويوسف ما جاء من بعده إلا موسى، وهو أشبه الناس بحاله من حيث الغربة والطفولة والعيش داخل القصور والتمكين في الأرض: " ولما بلغ أشده، واستوى، آتيناه حكماً وعلماً " [٣٩] " وذو القرنين مكن الله له في الأرض، بقوله تعالى: إنا مكنا له في الأرض وآتيناه من كل شيءٍ سبباً، فأتبع سبباً " [٤٠] والتمكين ثمرة العلم والإدارة.

وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ

يزكي الله يوسف بأنه من أهل الإحسان، كما زكى جده إبراهيم من قبل، قوله تعالى: " قد صدقت الرؤيا، إنا كذلك نجزي المحسنين"[٤١] وجاءت التزكية لإبراهيم بعد أن هم بالذبح، وهي نهاية شوط الابتلاء، بينما يوسف جاءته التزكية مقدمة قبل العمل، لأن الله بعلمه بيوسف وحيائه وعفافه

---

[٣٩] سورة القصص:١٤.

[٤٠] سورة الكهف:٨٤-٨٥.

[٤١] سورة الصافات:١٠٥.

ووفائه لعزيز مصر، وأمانته في التخزين، زكاه، وقد تحقق ذلك . وهذا لايعني أن يوسف أفضل من إبراهيم عليهما السلام، ولكن الله يفعل مايريد. والأنبياء بحاجة إلى الله، والله ليس بحاجة للأنبياء، وينتقل النص لتصوير حالة يوسف من الداخل، وصار يوسف بين شهوة مؤججة، وجارة مهيجة.

مراودة الشارع مرة، ومراودة البيت ألف، ألف مرة:

ﵟوَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ {يوسف/٢٣}

وَرَاوَدَتْهُ

هي تريد منه حاجتها، وهو مستعصم بدينه، ولشدة استعصامه، ألجأها لتكرار المراودة، ولولا مراوداتها المتكررة من ذا الذي سيكشف لنا عن عظمة يوسف وعظمة حيائه، وعظمة مراقبته لله.

الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ

ومراودة الشارع قد لا تتكرر، بيمنا في البيت هو تحت مرماها، فضحكتها مراودة، ومشيتها المتكسرة، وسلامها، وكلامها المغنج مراودة.. وروادته عن ماذا ؟

عَن نَّفْسِهِ

كلام دقيق عميق.. عَن نَّفْسِهِ.. عن كيونته وكرامته وحياته، هي تريد منه شهوته، وهو يراها تريد نفسه وروحه، وهذه النطفة من المني، كم ؟ وكم ؟ أذلت أعناق الرجال، ولطخت حرائر ما كان لها أن تتلطخ، وأهانت قبائل، وأسكنت أصحابها اللحود.

وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ

وكان يكفيها أن تغلق الباب الخارجي، ولايُدخل منه إلا بعد استئذان، ولكن غلقت الأبواب من الداخل حتى لايخرج يوسف بنفسه، وغلقت الأبواب بنفسها، ولم تكلف غيرها، وهي الآمرة الناهية للخدم والحشم، أخرجتها نار الشوق والتوق عما هي فيه، عن كينونتها ومكانتها.

وَقَالَتْ: هَيْتَ لَكَ

المشكلة في حالتها النفسية وتمردها على الفطرة والحياء الذي هو من لوازم الأنثى، أي أنثى حتى في العالم الفطري الأنثى تجري هنا وهناك بدون ضجة، والذكر يلاحقها رافعاً صوته مرعداً مزبداً، أو متذللاً متغزلاً، وحالتها نادرة، والكلمة التي نادته بها نادرة، ولم تتكرر، هيت لك..

لأنها مفردة تختزن: قالت، ونادت، وصاحت، وأمرت، وتعجبت....كل هذه المعاني مخزونة في: هيت لك !

وتستبطن التحدي ! أين المفر؟

إنها منازلة بين سلاح الشهوة والسطوة، وبين ثبات الإيمان والعفاف...

وهي على استعداد أن تحرق القصر بمن فيه...هيت لك

وبعض وسائل الإعلام المعاصرة التي في منهجها تدمير القيم، لم تر من تاريخ المرأة كل المرأة بمره وحلوه، إلا هذه المرأة، ولم تر من هذه المرأة إلا هذا الموقف !

ولم تسمع منها إلا هذه التعويذة...هيت لك..!

وبعض الاعلام المستغرب شعاره: هيت لك !

فبدأت بعض الشاشات المستغربة والمتصهينة تتسابق بمعارض اللحوم البيضاء، ولسان حالها ينادي: هيت لك، وهذه بعض المطبوعات الإعلانية والورقية المدرسية والتجارية عليها صور تنادي:...هيت لك...

هذا الظلم بعينه للمرأة، فأين أم المجاهدين؟ وأم الأيتام؟ وأم العلماء؟ وأم المبدعين؟...

فألهبوا الشهوة عند الناس، وأسعروها ناراً خاصة، لاتطفئها الماء، حتى وصلت نار التحرش إلى المحارم....والشهوة تقول: هل من مزيد ؟ ونقول لها ولهم: ليس بعد المحارم حدود أو سدود...

إن قنابل الشهوة أشد من القنابل النووية، لأنها تتفجر عن بعد، وأحياناً بدون مبرر، كقنابل المتزوجين. الذين يتحولون من الطيب إلى الخبيث.

شعار الشباب المؤمن: معاذ الله !

قَالَ مَعَاذَ اللهِ

ففي الإسلام:العفة، والشرف، والمغنم، والمغرم للرجل والمرأة بالتساوي، ومما نتسامع به من جرائم قتل الشرف، تقتل الزانية ويبقى الزاني، تقتل الفاجرة ويبقى الفاجر، تقتل العاهرة، ويبقى العاهر، يصهل في الساحة، يبحث عن غرةٍ ظروفها صعبة.

وهذا يوسف حجة على كل رجل، وجاء رده على امرأة العزيز ثمرة إيمانية، هذه ثمرة الصلاح والإيمان ولاعلاج لهذا السعار الشهواني إلا بهذا الدواء الإيماني: معاذ الله !

فرَّغوا الناس أولاً من المقاومة الفطرية والإيمانية، وبعدها خزنوهم باللحم الأبيض عن بعد، وهو سلاح لايقاوم، حتى الذي بلغ من العمر عتياً، عندما يرى هذا الجمال والغنج الذي لاعهد له به لو قيل له : هيت لك..!

ربما يكون يوسفياً.... وربما ينتخي...

ويقول : نحن أهل النجدة والمروءة في النازلات ، ولكنها نخوة نحو النازلات...

وكم من شاب يوسفي –اليوم– في هذه الأمة دعته امرأة ذات حسن وجمال؟ وقال: معاذ الله !

إن أمة الإسلام أمة العفاف، وستظل تنجب العفيفين والعفيفات الذين يقودون الطهر في العالم إلى يوم القيامة، وهذه أرقام – الإيدز– تشهد على ما أقول، وتبقى أقل الإصابات في العالم الإسلامي.

وحدثني من أثق به وثقافته دون الثانوي، وسنه دون الأربعين، وعنده قسط من الوسامة والفتوة، وهو يعمل سائقاً في... ، ومعظم العاملين مطلقين العنان للحرية الشخصية، ومرضت زوجته بمرض لم يعد ينتفع منها بشيء، وعُرف وضعه، وهناك من راودنه، وقلن له، ويقلن...: هيت لك...، ويقول مستعصماً: معاذ الله !

ويصلي التهجد في الليل، ويبكي، ما شاء الله أن يبكي، ويدعو الله بالفرج، لأنه لايستطيع أن يفتح بيتاً ثانياً، وعلى هذه الحالة منذ ثماني سنوات.

وزوج يحكي عن زوجته الثانية التي أخذها بعد موت الأولى، وكانت في نهاية الثلاثينات، وفي منتهى الشباب والجمال، ولم تمضِ فترةً طويلةً، ارتفع

عنده السكر، وضرب فحولته، ولم يعد ينفع بشيء، فيقول زوجها: أنها تلبس وتتزين، حتى هي تهيم بنفسها....!

فتنفجر باكية، ثم منتحبة، ثم تهمد كمداً، إنها في مناحة دائمة، وخيرها بالطلاق، ولكن شعارها: معاذ الله !

وهذه هي الأيدي المتوضأة...! هي التي تعرف الوفاء، لأهل الوفاء.

إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ

وهاء الضمير في: إنه، تعود على الله، الذي ألهم عزيز مصر أن يعطف عليّ، وقد تعود على عزيز مصر الذي أحسن إليه. ولسان حاله يردد:

هل جزاء الإحسان إلا الإحسان؟

من ذا الذي أكرمني غيره، وهؤلاء إخوتي رموني، وهو احتضنني، وأهل السيارة استعبدوني، وباعوني، وهو اشتراني، وتبناني، وأنزلني منزل صدق، وكان لي خير المنزلين. وكان يوسف متعلقاً بربه.

ولماذا دارت مفردة " ربّ" ثلاث عشر مرة ؟

و يبرز ملحظ هام حول استخدام يوسف في مجمل السورة لمفردة: رب...رب...

– رب... وملصقاتها- ثلاث عشرة مرة. إنه ربي أحسن ... رأى برهان ربه...قال: رب السجن...فاستجاب له ربه... مما علمني ربي....أأرباب متفرقون...فيسقي ربه...اذكرني عند ربك...ذكر ربه....ارجع إلى ربك...وهكذا.

يوسف لم يُربَّ في بيت أمه وأبيه، والله تولى تربيته بلطفه به، وأنى التفت لايرى إلا ربه، الذي تولاه، ورباه، فملك عليه قلبه وسمعه وبصره ؟!

إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ

ولماذا جاء السياق بهذه الخاتمة، إنه لايفلح الظالمون ؟

يرى يوسف طلب امرأة العزيز جريمة مركبة من الغدر بصاحب المنزل، والزنا بحليلته، هذا هو الظلم.

وإن أهل الغدر من الزناة لايفلحون، فهم ظالمون لأنفسهم وأهليهم وأزواجهم، وللإنسانية جمعاء. وظالمون لأهل المزني بها، ولزوجها وأولادها وللمجتمع.

وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاء إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ {يوسف/٢٤}

وحول هذه الآية آراء كثيرة، واعتمد بعض المفسرين وجهة النظر النحوية:

لولا: حرف شرط غير جازم، وهي حرف امتناع لوجود...ودارت في القرآن خمساً وسبعين مرة.منها:

ولولا رهطك لرجمناك.[٤٢]

ولولا فضل الله عليكم ورحمته، لاتبعتم الشيطان..."[٤٣]

فهو لم يرجم لوجود رهطه، وهم لم يتبعوا الشيطان، لوجود فضل الله.

وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ

وجواب لولا محذوف لدلالة ما قبله عليه، والتقدير: لولا أن رأى برهان ربه لهمّ بها، فرؤية البرهان، نفت الهمَّ .

---

[٤٢] سورة هود:٩١.

[٤٣] سورة النساء:٨٤.

برهان الله المانع الأول للهمّ من جهة يوسف، ولو لم يوجد برهان الله لبدأ الهمّ، والهمُّ: أول العزم. وبداية التفكير في أمر ذي بال. ثم يصرفه الله بلطفه، كما في قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اذْكُرُواْ نِعْمَتَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُواْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ ...."[٤٤]

يتدخل لطف الله الخفي، فتنطفئ نار الفتنة، والمشاجرة، والمطالقة...وفي ذلك برهان لمن يعقل.والذي يعزز هذا التوجه، تدخلت العناية الربانية فصرفت السوء والفحش كله، قوله تعالى:

كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاء

ولقد صرف الله عنه أمرين:

السوء والفحشاء، والسياق الذي جاء ب(يصرف) هنا،حضور السوء والفحشاء، ويحتاجان إلى قوة خارجية تبعدهما عن المكان،لقد صرفهما الله عن يوسف –وقبل أن يدعو ربه– أمرين: خيانة صاحب المنزل الذي أحسن مثواه، ثم صرف عنه فاحشة الزنا، ولما اجتمعت النسوة، وكلهن من عِلية القوم،ويملكن السلطان والجمال، وصار حوله – بنك– من الجميلات، يطوقن يوسف، وحالهن ينادي: هيت لك..!

ههنا استغاث يوسف بربه. " وإلا تصرف عني كيدهن أصب إليهن.." بمعنى: قد أصب، وقد أميل... " فاستجاب له ربه، فصرف عنه كيدهن.." الآية |٣٣. يوسف بالقرآن نبي (روح...ونور، لحم... ودم) وفي الكتاب المقدس شخصية تاريخية. ولولا حالة التدافع الداخلي، لم يستغث ربه كي ينصره على نفسه وعلى خصمه.

---

٤٤ سورة المائدة:١١.

وهنا يبرز ملحظ في غاية الأهمية، ولم أطلع على من فطن له.

لماذا زكى الله يوسف بالآية التي تسبق آية المراودة، والهمِّ ؟

ثم زكاه مرة أخرى بالآية التي بعد آية المراودة، والهمّ ؟

رحمة بالخلق حتى لايقع المتعجلون بالقذف ! وقد وقع بعضهم !

ولهذا كثف السياق الإضاءة والإنارة في منطقة الطريق الخطرة، فزلل الأفهام أشد خطراً من زلل الأقدام، وقذف الفاسق لايصح إلا إذا اكتمل النصاب بأربعة شهود عدول، فكيف بمن يقذف نبياً، أو يجرحه ؟ وعلى بعد في الزمان والمكان؟.

أولاً: ففي الآية: ٢٢يزكيه الله بقوله: آتيناه حكماً وعلماً، وكذلك نجزي المحسنين .

ثانياً: ففي الآية:٢٣ تبدأ المنطقة الضبابية التي لاتستبين بها الرؤية بسهولة، هي منطقة لاختبار النفوس التي تحسن الظن بالآخرين. حول همت به، وهم بها....

ثالثاً: ففي الآية:٢٤ يزكيه بقوله: إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ

وفي هذه النقطة امتحن الله نفوساً، وأفهاماً، وعقولاً... يوسف نجح في ابتلائه، وهو في مقعد صدق عند مليك مقتدر، ومازال القراء المتعجلون يسقطون في همّت، وهم بها....

وهل يجرح الصيام أو الصائم إذا رأى الماء الزلال ينساب في الجداول، وهو في غاية العطش، وهمت نفسه إليه، ولكن منعه دينه وصبره عن الشرب، وهذا صراع دائم بين الفطرة والإيمان؟

إن الله يسجل على أنبيائه ورسله أدق الدقائق في الجانب البشري الفطري الذي لايملكه الإنسان أصلاً، مثل الحب لأحد الأولاد، أو لإحدى الزوجات، فالإنسان يملك العدل بالمحسوسات بينهم، ولكنه لايملك حبه وميله، وهذه قصة زواج أمي زينب بنت جحش أم المؤمنين رضي الله عنها، وقد أظهر الله الجانب البشري الفطري الذي لايؤاخذ عليه محمد رسول الله، وإن كان من عتب ، على غلبة الحياء عليه، وخشيته من تقوّل الناس، وإخفائه شيئاً غير مسؤول عنه، ولامحاسب عليه !

"...وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا... "[٤٥] .

وكم هم الذين وقفوا عند: راودته...وهمت به... فأرادوا أن يكحلوها، فغاص المرود في العين ؟

بدأ المشهد يتسارع نحو المجهول، وتحول الحب من شغاف القلب وحنان الصدر، إلى انتفاخ في عضلات الأيدي والأرجل وقفز الحواجز.

وَاستَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاء مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوَءًا إِلاَّ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ {يوسف/٢٥}

وَاستَبَقَا الْبَابَ

وتكلف كل منهما أن يسبق الآخر، وبذل طاقة جهده، فهو خائف على دينه وكيانه، وهي خائفة من أن يطير منها إلى الأبد وينتشر الخبر.

---

[٤٥] سورة الأحزاب:٣٧.

وقد مرّ معنا، قول إخوة يوسف:...إنا ذهبنا "نستبق"، وقد وقف صاحب تفسير المنار، وفرق بين الاستباقين، ويقول: إنه فطن لأمر، ما فطن له الزمخشري علامة اللغة.

نستبق: يتكلف كل منهم السبق، وهو المراد هنا، ومنه: فاستبقوا الخيرات... والتسابق: بصيغة المشاركة، وغالباً ما يقصد به الغلبة لهدف ما. وليس السبق. وجاء دور القميص الثاني.

ـ ميزة قميص الأمراء يُقدّ ، ولايشق:

وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ

وكلمة قدّت: غير شقت، ومزقت، وطرّت...لأن قدّت، تستعمل لقطع الجلود.

والذي استدعى مفردة قدت القميص، كونه قميص أمراء، وهو جديد ونفيس وقوي، فهذا لاينشق ولايتمزق ولايطرّ بتلةٍ معتادة، وكأنه جلد فما ينقد إلا بالشفرة، أو بضربة كأنها السكين.

مشهد فيه تصوير لحالةٍ انفعاليةٍ شديدةٍ. ولفارق السن بينهما، وفارق الحدث، ووقع التزاني الذي يضغط عليه أكثر منها، تقدمها بالسبق، وكاد يخرج من القفص، فأنشبت مخالبها بين جناحيه، وقدت قميصه وبثقلها جذبته للخلف، وهي بالنفس الأخير.

وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ

ولو تواعدتم، لاختلفتم بالميعاد، يوسف يجذب إليه مصراع الباب، وزوجها يفتحه.وكانت المفاجأة. بأن وجدا زوجها وسيدها على موعد ...

والذين يعرّفون الذكاء، قالوا: هو التخلص في المواقف الحرجة. فهي ملكت الذكاء والدهاء:

قَالَتْ مَا جَزَاء مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوَءًا إِلاَّ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ

وصاحت منفعلة من صدمة الموقف، ماجزاء....؟

هي التي شكت يوسف، وجرمته، وحكمت عليه بالسجن أو العذاب الأليم، وتمتلك بذلك قدرات رهيبة على تصبيغ الحقائق باللون الذي تريده، وأعجب من ذلك سرعة استثمارها فقه اللحظة الراهنة، التي يجيدها الغرب اليوم، في تحويل الضحية المسلم إلى إرهابي، والمجرم الغربي الذي قطع آلاف الأميال حتى وصل ديار المسلمين ومدجج بالسلاح، ودخل بيوت المسلمين، وقتلهم بأنه رجل السلم والسلام...أو جاء من هناك لأجل مساعدتهم وتحقيق التنمية لهم، بقتل كل العائلة إلا فرداً، وينفرد بالميراث، ويحسن دخله، وهذه تنمية غربية...

قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي

يوسف الصديق: هي راودتني مراراً، ولما يئست ونفد صبرها، طاردتني، وأنا أفر منها.

والفارق بينها وبينه:

هي تريد أن تشم ندرة الجمال البشري، هي تراه أكسجيناً يدخل في كل خلية في كيانها، يحييها، ويميتها، وهي تتخيل لما خلقه الله، كأنه قال للزهر، والعطر، والجمال، والحياة: كنَّ يوسفاً، فكان يوسفاً...

وسئل ابن عربي- رحمه الله- لماذا أفتتنت النساء بيوسف، وهو يملك شطر الجمال، ولم تفتتن بمحمد صلى الله عليه وسلم، وهو يملك الجمال كله؟ فقال: جمال رسول الله فوق الطاقة البشرية...

ولعل وقوف الأطيار فوق أسلاك الكهرباء، عندما تريد أن تستريح، أوتشحن بطارياتها، ثم تتابع حياتها، ولم تؤذَ، كون التيار فوق الطاقة الطيورية. وهذا كلام لايوافق عليه الكهربائيين، لأنهم لايقرون بلغة الخيال والأدب، لغة الطاقة المضغوطة، وكلها توتر عالٍ، لذلك تهز القراء كلما قرئت وتجعلهم يبكون أو يضحكون بعد آلاف السنين.

وأما يوسف يرى أنها تريد: نبوته، وحسبه، ونسبه، وخلقه، وحياءه، وعفته...فمجموع ماتريده هي"نفسه" التي يحميها ويحرسها. وأي قيمة لحسب ونسب ومال وشهادة صاحبها دنيء قذر، تقوده شهوته...!

من خطام أنفه .

وبدأت محكمة مستعجلة في الهواء الطلق:

وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الكَاذِبِينَ {يوسف/٢٦}

وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا

و لماذا جاء ت " شاهد" نكرة؟

وجاءت مفردة "شاهد" نكرةً، ولكنه من أهلها، وفي مثل هذا الموقف الحرج للعائلة وأمام الصهر المميز عزيز مصر، طُوي تحديد اسم الشاهد كأب أو أخ....والقضية نقلت برمتها من جريمة - مع سبق الإصرار والترصد- إلى

من منهما الصادق؟ ومن الكاذب؟ وهكذا يتم تمييع الحقائق، وتوجيهها في دهاليز القصور.

ولقد تجنبوا الخوض في أصل الحكاية، ثم قدموا اسمها عليه، فقالوا: إن كان القميص الجريح قدّ من الأمام نتيجة المدافعة، فصدقت....

وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِن الصَّادِقِينَ {يوسف/٢٧}

والقميص هو الذي يحدد المعتدي، إن كان ممزقاً من الأمام دليل التدافع، والتمنع منها، وإن كان من الخلف دليل على هروبه، وهي تعلقت به. وهكذا تعالج الأمور المحرجة في المجتمعات المخملية، ببرودة الأعصاب، وتطويل النفس، والزمن يتكفل بالنسيان.

فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ {يوسف/٢٨}

فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ

ولما رأى الشاهد – وكأنه نحوي من البصرة – القميص قد من دبر، قال:

يوسف: مفعول به، وعلامته الفتحة الظاهرة في آخره.

من هو الذي رأى القميص؟ ومن هو القائل: إنهن من كيدكن؟ زوجها أم الشاهد؟ فإن كان الشاهد المحرم فمن مصلحته، تنتهي الأمور بهدوء وستر، وهو المرجح، وإن كان الزوج ليس من مصلحته إشاعة الخبر، لأسباب منها: ربما يكون من أهل الدم البارد، وإما لأنه أهملها وهو السبب الحقيقي، لذلك خنس، وسكت، كونه عزيز مصر وعنده المرعى المتجدد متاح داخل هاتيك القصور، وإلى جانب مشاغل العمل المتوالدة التي تغيبه عن أهله، فربح لذته، ووظيفته، ووجاهته، وخسر بيته وأسرته؟ وضيع زوجته وأهله !

ونماذج عزيز مصر تتكرر في تضييع بيوتها وأولادها وأعراضها، وزاد الغرب شيئاً جديداً في حضارته، بدأ الرجل والمرأة يقومان بدور عزيز مصر حذو النعل بالنعل، ربحوا الشاشة والشارع والإعلان، والمال وخسروا جنة الدنيا وهي الأسرة السعيدة.

قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ

ومازال الكلام للشاهد، والسياق:

بدل أن يقول: إنه من كيدكِ، إن كيدكِ عظيم، فتحول الخطاب من المفردة إلى جمع النسوة: إنه من كيدكن.... وبهذا الأسلوب قد وصلت الفكرة إلى المتهمة، وتوزع اللوم على بنات حواء ، وتبددت الأنظار نحوهن، واشتغل الناس بنساء القصور، هن متفرغات للقيل والقال، والمنافسة على صيد الملذات، وعندهن دربة ومران على سرعة التخلص من المآزق الحرجة، وتلوين الحدث بلون مغاير. فهي التي راودته، ثم طاردته، ثم اتهمته، ثُم حكمت عليه بالسجن والعذاب الأليم.

والكلام الذي وُجِّه ليوسف ولامرأة العزيز، لايصدر إلا من منصف وعاقل:

يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا، وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ {يوسف/٢٩}

ومازال الكلام للشاهد المنصف،وبكلامه ريحة الرجاء أن يعرض ويتجاوز يوسف عن الحدث، وقد مدح القرآن المؤمنين الذين يعرضون عن اللغو، قوله تعالى: " وإذا سمعوا اللغو، أعرضوا عنه "[٤٦].كأن لم يسمعوه.

---

[٤٦] القصص | ٥٥

وقال للولهانة: استغفري لذنبك، دليل على أنهم يملكون شيئاً من الإيمان ومن لوازم الإيمان، الاستغفار من الذنوب، وقد حكم عليها : إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ

والسياق: إنك كنت من الخاطئات، وهو جمع قلة، وحوله إلى جمع الذكور، وهذه صفات وأساليب رجال التدبير، في استخدام الكلمات الناعمة، والمتموجة، وفي هذه الآية تجلت قدراته – الدبلوماسية – في مفردتين: يوسف أعرض عن (هذا) ما هذا؟ ولماذا ؟

والثانية: إنك كنت من الخاطئين – تحول إلى جمع الذكور لتضخيمه كفعل- وللحفاظ على المشاعر العامة، ودفن هذه الجيف الاجتماعية.

ولكن نار امرأة العزيز تعالت على الجدران، ورأى الناس الشرر واللهب والدخان، وما السبيل للجيران حتى يساعدوها، فلو كانت نارها في ثيابها أطفؤوها، ولكن نارها في الحشا.

وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ {يوسف/٣٠}

وحملت الريح الخبر إلى الشارع العام، ووجد صداه عند المترفات ، من اللواتي تفرغن لجمع الجماليات والكماليات من القصور والزهور، والثياب، والحلي، والبحث عن زوج له من القمر جماله، ومن المناصب أعلاها، ومن المال ما يحقق لهن مايتمنين، فواحد كيوسف يملك شطر الجمال، هدف ثمين، ولابد من رؤيته لتقييم الموقف، ولعل العزيز يطرد امرأته، ويأخذنه، أو لعلها تطرد الغلام ويصدنه، وقال نسوة –جمع قلة- من النخبة، في مدينة عامرة بالحضارة والترف، وقلن: امرأة العزيز...ولم

يقلن: فلانة أو بنت فلان...لأنها مغمورة، وأضفنها للعزيز، فعرفت به، وقلن: تراود فتاها ـــ مستمرة ـــ ولم يقلن: راودت فتاها فيما مضى، وتراود يعني الاستمرارية، الآن...وغداً، من أجل تهييج العزيز عليها، واثارة الغيرة عند العزيز بقولهن: لقد شغفها حباً، ويؤكدن أنها في ضلال، وهي تزكية ضمنية لأنفسهن بالعفاف. فدبرت لهن مكيدة لتنتقم منهن، ولتجعل لهن حداً بعد اليوم.

وبدأت الحرب الناعمة بين الحريم :

فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ {يوسف/٣١}

اشتعلت نار الحبايب، والكل تزكي نفسها، وتنال من الأخريات، ولما هاجمنها بمكر ودهاء، أرسلت إليهن، كونها أعلى منهن منزلة، وجئن مرغمات، وإن وافق هواهن هذا المجيء، وتكلفت في الإعداد والتجهيز، مجلساً فوق مستواهن،وعند اللغويين، أعتدت: من الإعتاد أو العدوان. ولو قال: أعدت لهن....كان إعداداً معتاداً، ولما قال: واعتدت...فلما زاد المبنى زاد المعنى، والتكلف صار محسوساً. والمتكأ فيه أقوال منها:

وقال أبو حيان: المتك بالضم، المائدة ، أو الخمر في لغة كندة.أ.هـ[٤٧]والمرجح الخمر لأنه غيبهن عن الواقع، وأوصلهن درجة المجانين..

---

[٤٧] تفسير البحر المحيط - (ج ٧ / ص ٩)

وآتت هي بنفسها لكل واحدة سكيناً، ولماذا سكيناً ؟

وهل تريد منهن أن ينحرن بعيراً ؟

أم تريد يقطّعن الفاكهة، والسكين قد تتعثر بالفاكهة، ولكنها تسري بهذه الأيدي الطرية الندية، التي يجرحها النسيم العليل، كما تسري السكين بالزبدة، وقالت ليوسف: آمرة (أخرج) تريد الانتقام.

وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ

ولماذا قالت أخرج عليهن؟ ولم تقل: أخرج إليهن؟ وما الفرق بينهما؟ ولماذا حددت هي وقت خروجه؟

ولو قالت أخرج (إليهن) صار جزءاً من الضيافة والتكريم لهن، ولكن: أخرج(عليهن) للاستعلاء والانتقام، وقد تحقق ماتريد، وما كانت تبتغي!

وحددت لحظة خروجه، لأنها كانت تراقبهن حتى أخذ بهن الشراب أو ما يماثله مأخذاً بعيداً، وشراب الملوك معتق ، يترك الناس صرعى، كأنهم أعجاز نخل خاويةٍ، بلاعقل، ولاحسّ، ولاموت، ولاحياة.

ولماذا هاج الشبق بهن حتى خرجن عن الطور البشري، وخالفن الفطرة التي فطر الله الأنثى عليها؟ وقد أودع الله الخفر والحياء في الأنثى، أي أنثى.حتى العصفور هو الذي يبحث عن أنثاه، ويجري وراءها من غصن إلى غصن، والهر يموء وراء الهرة من مكان إلى آخر، إذاً لابد من شيء خفي لانعلمه، غير المسكر، ومخصص لتهييج الشهوة العرمرم!

وسكان القصور ماعندهم أزمة معيشة تشغلهم، ولاهمّ لهم برغيف الخبز، وهمهم خلق الملذات واستحضار مستلزماتها. وفي عصرنا صارت تباع المهيجات في الصيدليات البشرية والبيطرية.

فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ

هو كبير، وهن أكبرنه، لماذا ؟ ربما زينته !وزينته !حتى صار نوراً على نور.

وفي القصور أمهر الناس، وأحذقهم في فن التجميل، لكثرة الحفلات، وكمال الكماليات في القصور، ضرورة حياتية يومية، ومسألة الإرواء الجنسي من مستلزمات حياة المترفين، لذلك يعدون له عدته، من أطباء وأدوية ومنشطات... وبالغت في ذلك، فلما رأينه، أعظمنه، وأكبرنه...

وامتدت إليه أيديهن دفعة واحدة، وكأنهن ضرائر متشاكسات، وهن غرقى في بحر جماله وكماله، وبدأت كل واحدة تقطع يداً ممتدة إليه، تريده لها وحدها، نية القطع موجودة،سواء انقطع أولم ينقطع، وإلا لاقيمة لكلمة... قطّعن...ولم يشعرن بأي ألم من عمق الغيبوبة!

وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ

ولو قال: قَطَعَنَ ، كانت لمرة واحدة، وبتشديد الطاء، تكاثر التقطيع بين الجميع. تصوير للنية من الداخل، النية القطع، والواقع التجريح.

لِمَ قطعن أيديهن، ماعدا امرأة العزيز ؟

ولماذا لم تُقطع أيديهن من قبل، ومن بعد، عند رؤية يوسف؟ لأنهن في وضع طبيعي. وأما في مجلس امرأة العزيز، تدخل شيء غير طبيعي سري، ولم يفصح عنه القرآن. ولماذا امرأة العزيز لم تشاركهن في مجزرة "المعيصم" ؟

لأنها احتفظت بصحوها وكمالها، ولم تأخذ مما أخذن منه ؟.

وكل هذا من كيدهن، إن كيدهن عظيم، ولو قيل لعفريت سليمان، أو لإبليس الذي فعل ما فعل بآدم عليه السلام، هل تستطيع أن تصنع مثل هذه المكيدة؟ لتردد !

وبعد أن انقشعت الغيوم المتلبدة في الرؤوس والنفوس، وأشرقت شمس التعقل، وغلب الصحو السكر.

وَقُلْنَ: حَاشَ لِلّهِ مَا هَذَا بَشَرًا

وقد كان بشراً.

إِنْ هَذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ

ولم يكن ملكاً بل كريماً.

لقد حققت ماتريد منهن، وأشركتهن جميعاً في حالها، وكل واحدة منهن صارت كامرأة العزيز متهمة. والآن ارتفع صوتها عليهن:

قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ {يوسف/٣٢}

وبعد أن قطّعن سمعتها وكرامتها، هي قطّعتْ أيديهن ، وقطعت ألسنتهن بعد اليوم، فبدأت تتكلم على المكشوف، وهي مازالت سكرانة بشهوتها وشبقها.

قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ

وهل تلام مثلي على مثله؟ نعم...! راودته عن نفسه .

فَاسْتَعْصَمَ

ومن يعتصم بالله، يُعصم، سبحان الذي حبب إلينا الإيمان والحياء، وزينه في قلوبنا، وكره إلينا الكفر والفسوق والعصيان، وهي تتصور استمرارية امتناعه الدائم.

وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ

لقد تكلس الحب عندها، وتغيرت صفاته من حنوٍ ودنوٍ، إلى قوة قاهرة كاسرة، ولقد طوى القرآن كثيراً من الكلام، لأنه كتاب أخلاق وحياء، نحو: ولئن لم يفعل، يفعل ماذا ؟....؟ ما آمره، تأمره بماذا ؟....؟

لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ

وتوعدته، أمامهن بالسجن والإذلال، وكلهن موافقات على هذين القرارين. وهل وافقنها نفاقاً لمنزلتها؟ أم أن الإباحية في عصرهم، وفي قصرهم من الحرية الشخصية ؟

وقال أمامهن وعلى مسامعهن:

قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ

لو قال يوسف: وأفوض أمري إلى الله، فعند الله مياسير عديدة، لكل أمر عسير، ومخارج سديدة لكل من ضاقت به الحيل، ولكن يوسف طلب لنفسه السجن، فأجيب لطلبه، وأتعب نفسه، وللدعاء جناحان: الحذر، والأدب. وقد يصر الداعي على أمر ما، وفيه هلاكه، ولكن يفوض الأمر لربه، وفي دعاء الاستخارة" اللهم: خِرْ لي، واخترْ لِي.[٤٨]

والتحدي لايكون سراً في مثل هذه الأجواء، والأنبياء لايعرفون إلا المواقف الواضحة المتحدية للواقع المهين، ولولا هذه المواقف القوية المكشوفة، ما حصل لهم أي تغيير، وهذا رسول الله، عندما قالت له قريش: هيت لك...ما تريد؟

. ملكاً ! ملكناك..

---

[٤٨] الترمذي، رقم الحديث:٣١٣ | الأذكار للنووي.

. مالاً...أغنيناك..

. قال: لو وضعوا الشمس في يميني والقمر على يساري، على أن أترك هذا الأمر ماتركته....وتفاصيله الحدث في مظانه.

وهذه المواقف هي التي تميز معادن الرجال، فبعض الذين يتسللون إلى حقل الدعوة، يخرجهم الله من صفوف العلماء، بامتحان ما، وكم من بقرة في نهاية التعب، قلبت حليبها، أو زبلت به، وضاع العمر والتعب؟ تحت عنوان:

هيت لك....!

هيت لك...بقرة صفراء فاقع لونها، تسر الناظرين.

هيت لك...بيضة أو بيضاء..

وسيبقى يوسف رائد الفضيلة والعفاف بمواقفه الصلبة والواضحة، وأراد أن يكون مدرسةً ومدرساً ومنهاجاً للشباب المؤمن بعده، وهي مدرسة المستعصمين بالله، والفضيلة ثمنها غالٍ، وقد يفنى العمر على فضيلة واحدة، بينما الرذائل مطروحة في الأرض، وبساعة يستطيع الأرعن أن يكون زانياً، ولصاً، ومزوراً، وزنديقاً....

قال يوسف: يارب... فطر الرجال على حب النساء، ولكنني أحب السجن أكثر مع الفضيلة، وسيأتي اليوم الذي يحصحص فيه الحق، وتظهر براءتي، وسيكافئ الله المظلومين، ويرفعهم دفعة واحدة من ظلمات السجون، إلى عروش الملك والعز !

يوسف بين العصمة والبشرية والفطرة والتدافع الداخلي:

وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ {يوسف/٣٣}

ويتحدث- هنا- يوسف البشر والفطرة، التي لافكاك منها، ويظهر عجزه وضعفه أمام الفطرة التي تسكن في داخله، وأمام الجيوش الناعمة، التي زُودت بالأسلحة التي لاتخطئ، عيونها كحيلة، وليست مكتحلة، ووجوهها جميلة، وليست متجمله، ونفوسها عاشقة، وليست متعشقة، ولسان حالها ينادي: هيت لك !

كانت المحنة مع امرأة وحدها وماتتمتع به من نفوذ وجمال، ولما نجح في الامتحان الأول، حوله القدر إلى المستوى الأعلى، والآن تكاثرت صواحب الجمال والنفوذ وكلهن عليه، وإزدادت المحنة والبلاء والصراع الداخلي عند يوسف، وإلى أي مدى سيبقى صامداً، وهو بين ضغطين:

ضغط الفطرة في داخله، وقد قارب الانفجار، وبدأت الزلزلة في الثوابت، وضغط العيون التي في طرفها حور قتلن جريراً، ويصرعن ذا اللب.... لذلك يقول: إن لم تنصرني، سأصب إليهن..

وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ

ولو كان يوسف من الملائكة،لم تتحرك به دوافع الفطرة،ولم يحصل أي تدافع داخلي، فلا معنى للمحنة والابتلاء. ولكنه من البشر، يأكل الطعام ويمشي في الأسواق.

فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ {يوسف/٣٤}

فاستجاب له ربه الذي أخرجه من حضانة يعقوب اصطفاءً، ثم رباه، وتولاه، وعلمه، وهيئه لمهمة إنقاذ البشرية من المجاعة في تلك الفترة والبقعة من العالم.

والقرآن يؤدبنا، ويعلمنا من خلال تكراره للمفردات التي تستبطن حساسيةً ما، وهنا كرر مفردة (كيدهن) وهي أول خطوة نحو الأدب النظيف، وتبقى سورة يوسف قصة، ولكنها من الأدب الهادف الذي يتجلبب بالحياء ، واستخدامه لمفردة نظيفة، وتختزن المعنى الموحي في (كيدهن) وهذا يوسف، يقول: اصرف عني كيدهن ....وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ... والقرآن يقول: فصرف عنه كيدهن...

استخدم مفردة الكيد بدل مفردة الشبق والإباحية، والقرآن منهج حياة، فلابد من تربية الناس على الحياء ودفن هذه الجيف. التي تُحشى بها مجلات العفن الفني، ومن الغلاف تفوح رائحة العفن والعفونة.

ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّن بَعْدِ مَا رَأَوُاْ الآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ {يوسف/٣٥}

وصار أهل القصر مذهولين يدورون في حلقة مفرغة لايدرون من أين طرفها ؟ فبدا لهم من بعد الإعجازات التي حققها يوسف، وتوجهت الأنظار إليه، وشاعت أخباره، وصار عقلاء القصر في حرج، فلابد من حلٍ إداري، وهو تغييب يوسف عن الأنظار لفترة ما، حتى ينسى الناس الإشاعة، و لما أرادوا إنزاله تحت الأرض، رفعه الله عزيزاً على مصر، ومثله عيسى عليه السلام، لما أرادوا أن يقتلوه ويغيبوه، رفعه الله إليه، وفي هذا ردّ عملي من الله على الظلمة، وكأنه يقول لهم:

إن في هذا الكون إلهاً، ينصر المظلومين، يحفظ الأنبياء والعلماء والدعاة مالكم ألا تعقلون ؟!

من القصر إلى المدرسة اليوسفية:

ثم تحول النص من القصر وضجيجه ودسائسه وتحاسده إلى السجن وصمته، والسجن منزلة بين منزلتين، بين القصور والقبور، وسكان السجن كسمك في برميل، يدورون حول أنفسهم، ومعظمهم مرضى من مناخ فاسد، ربما نتيجة خلل اقتصادي واجتماعي وروحي ولغياب المنهج المربي، وغياب الأسوة والقدوة، وفي خلافة عمر رضي الله عنه وفي عام الرمادة، رفع حدّ السرقة إن كانت بدافع الجوع، ولكنها لم تحدث سرقة، والناس تموت من الجوع، والبشر تولد على الفطرة، ولاتعالج إلا بمنهج الفطرة، منهج القرآن. وتتجلى إدارة الله للأحداث بدقة، عندما دخل معه وبنفس اللحظة سجينان، سيكون لهما دور في إيصاله للملك، فظاهر الأمر دخلوا السجن لاقترافهم ذنباً، وباطن الحقيقة جاءا ليقدما دوراً في مسلسل حياة يوسف.

وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانَ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ {يوسف/٣٦}

أراني: عند النحاة إتحد فاعلها ومفعولها، وتعدت لمفعولين، عند بعضهم إجراءً للحُلُمية مجرى العلمية ...[٤٩]

وإذا جاءت على سياق الفاعل هو الله: إني أراني الله أعصر خمراً كما في قوله تعالى: ...لتحكم بين الناس بما أراك الله" [٥٠]. وقوله تعالى: ولو

---

[٤٩] لابن السمين الحلبي، الدر المصون،٦ | ٤٩٥.

[٥٠] ٤ | ١٠٥.

أراكهم كثيراً لفشلتم "[٥١]، وقوله تعالى: وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنةً للناس "[٥٢].

وهي شبيه برؤيا يوسف ولا يوجد ما يجزم القول بأنها منامية، كما في رؤيا إبراهيم عندما قال لولده: إني أرى في المنام ، أني أذبحك.." المهم أنها رؤيا مفروضة عليهما فرضاً، وتحمل رسالة محددة ودقيقة، بمثابة المفتاح لتأويل يوسف، وترشيحه لمرحلةٍ قادمةٍ

وطوى القرآن خبر الاجراءات التي أخذت بيوسف إلى السجن، ولكن ذكر الفتيين اللذين دخلا السجن بنفس التوقيت معه ، وما السر بهذا التوقيت ؟

وهذان الفتيان من رجالات القصر وبعد بضع سنين، سيخرج أحدهما ويعود لعمله، وسيذكر يوسف بين يدي الملك صاحب الرؤيا، ولولا السجن لم، ولن يلتقيا، ولعل قائل يقول: الله قادر أن يجمعهما بالسوق والمنتزه والصيد و....

ولكن لماذا بالسجن تحديداً ؟ تحويل يوسف من أعلى قمة من قمم الدلع والرفاهية، إلى قاعة الجوع والفقر والمظلمة، إلى قاع السجون، حتى يتبين ليوسف الخيط الأبيض من الخيط الأسود، من الأغنياء والفقراء، من الظالمين والمظلومين، ويُعدّ الله يوسف لنصرة الفقراء من الجوع، لأن عِلية القوم لاتجوع ولاتعرى ولاتمرض... ولكن الجوع ضجيع الفقراء، والعري جبة

---

[٥١] ٨|٤٣

[٥٢] ١٧|٦٠

أهل العوز، والمرض نزيلهم، ولايسكن أطرافهم، بل يسكن الحشى، كحمى المتنبي....

وكل نبي من الأنبياء رعى الغنم فوق الأرض، ويوسف رعى البشرية وفقراءها في غيهب السجن.

وطوى القرآن مرحلة التعارف والتآلف والتعاون بين يوسف والسجينين، وبدأ بقصة رؤياهما.

قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا

وبدأ بذكر السجين الذي سيكون حلقة الوصل بين يوسف والملك، وهوصانع شرابه.

أَعْصِرُ خَمْرًا

وكل فاكهة تعصر تكون قابلة للتخمر، ولكل نوع منها معالجة خاصة، حتى التمر ينقع، ويمرس، ويعصر، ويتخمر، وللملوك فيما يعشقون مذاهب.

ثم ثنى بالذي سيصلب، ويذهب في مناقير الطير.

وَقَالَ الآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ

رأى رأسه تحول إلى مطعم مفتوح للطيور...

وانتفع السجينان من مدرسة يوسف والتتلمذ على يديه من خلال المخالطة، فعرفا أنه يملك قدرات تأويليه عاليه، فقالا:

نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ

التأويل: قدرات اختراقية لحُجب الزمن الماضي، والحاضر، والمستقبل.

وهناك منامات كثيرة للنبي وأصحابه والأمراء والملوك وحيرت الناس في تأويلها، ثم أُولت، وجاءت كما أُولت!

وهذه واحدة من تأويلات ابن سيرين، جاءه فتى، وقال: رأيت كأني أسقي شجرة زيتون زيتاً، فاستوى جالساً، فقال: ماالتي تحتك؟ قال: علجه اشتريتها وأطؤها، فقال: أخاف أن تكون أمك، فكشف عنها، فكانت أمه"[٥٣]

ولقد بشر شيخ المؤولين يعقوب ولده يوسف بالاجتباء من دون إخوته ومن دون الناس المعاصرين له، وبشره بأن يختصه بتأويل الأحاديث،قوله تعالى: وكذلك يجتبيك ربك، ويعلمك من تأويل الأحاديث..." ويختص الله من عباده من يشاء بما يشاء من التأويل وغيره، كما اختص موسى عليه السلام بأن يكلم الله تكليماً، ولم يختصه بتأويل الأحداث، كخرق السفينه وغيرها، واختص الخضر بالتأويل بقول الخضر لموسى:..ذلك تأويل ما لم تسطع عليه صبراً " وأنبأنا الله بأن التأويل القرآني من اختصاص الله، والراسخون بالعلم، قوله تعالى:" وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون بالعلم..."[٥٤]

والتأويل: النفوذ إلى باطن الأمور، بل وإلى أبعد من ذلك، كتأويل يوسف البقرات السمان بالخصب، ثم تأتي سبع سنين عجاف يأكلن السمان،....بل حول تأويله إلى حقيقة ومشروع عملى، وأعلن النفير خمسة عشر عاماً، ثم بدأ التخزين والتقنين، وكل ذلك قد وقع، وتحقق، ولو لم يحصل شيء من نبوءة يوسف، ماذا قال عنه الناس؟ فقال السجينان:

---

[٥٣] معجم تفسير الأحلام، معروف زريق، ص:١٢. وأهل العراق يقولون للأعجمي: علجاً.

[٥٤] ٣ | ٧.

إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ

فأخلاق يوسف تمكنت من قلوب أهل السجن. والأنبياء عليهم الصلاة والسلام والعلماء العاملون، أخلاقهم كانت وسيلة دعوية قبل أن تأتيهم النبوة، وهذا رسول الله، سماه أهل مكة: الصادق الأمين، قبل النبوة.

يوسف يرشد للتوحيد، ولم يطلب صلاةً أو صياماً:

ولم يجب يوسف السجينين على سؤالهما إلا بعد أن تلا عليهم أربع آيات كان محتواهن في التوحيد، ولم يسجل لنا القرآن إن يوسف أمر بالصلاة أوالصيام أو خطب الجمعة.... ولكن أراد أن يدعو بالسلوك التطبيقي، وخدمة الناس هي الدعوة. وعمله على الأرض منبر دعوته. وهذا مثال:

ويقول د. عبد الرحمن السميط، كويتي، وهو من العاملين بحقل الدعوة في إفريقيا، يحفر بئراً، ويضع عليها مضخة يدوية، ويترك اسمه مسجلاً على الخرسانة، وبعد عام يعود، فلما يعرفونه، يتجمعون حوله، ويعلنون إسلامهم، وهذا ديدنه خلال ربع قرن، وبلغ الذين أسلموا على يديه(ستة ملايين، ونصف المليون) وظهر على القنوات الفضائية مرات، ومرات، وأخيراً...

وبدأ يوسف دور النبوة والدعوة في الآيات الأربع، وبدأ يكشف لهم عما اختصه الله به من القدرات، حتى يلتف حوله الناس، وهذا ديدن الأنبياء والصالحين، بإظهار المعجزات والخوارق، كشواهد على صدق دعوته، ومن معجزات يوسف مسألة الأطعمة للسجناء، والتنبؤ بنوعها، ووصولها...، ومسألة الإطعام للسجناء، مسألة حياة وموت، لذلك يهتمون بها، ويهتمون بمن يهتم بلقمة عيشهم.

وهذا سيدنا عيسى عليه السلام يعدد ما اختصه الله به من القدرات التي لايملكها غيره، حتى يلتف حوله الناس، فقال: أني أخلق لكم من الطين كهيئة الطير، وأبرئ الأكمه والأبرص، وأحيي الموتى بإذن الله، وأنبئكم بما تأكلون، وما تدخرون في بيوتكم..."[٥٥]. ولقمة العيش من أولويات البشر..

وأطعمة المساجين مرحلة تدريبية ليوسف مستقبلاً، لأنه سيطعم معظم العالم المحيط بوادي النيل، بقوله: قَالَ لاَ يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيكُمَا ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ {يوسف/٣٧}

وركز على النبوءة والتأويل أمام صاحبي السجن، وكأنما يعلمهما علماً جديداً، حتى إذا ماجاءت اللحظة المطلوبة مستقبلاً، يكون يوسف حاضراً في بؤرة شعور أحدهما.

قَالَ لاَ يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيكُمَا

وحديث يوسف مركز مع اثنين من دون السجناء، نحو: يأتيكما، ترزقانه، نبأتكما. بدل الجمع: يأتيكم، نبأتكم، ترزقونه...

والسؤال:

هل كان يوسف يقوم بهذا الدور مع صاحبي السجن، وهو يعي أنهم سيبلغون ملك مصر عنه، أو كالغيمة المحملة بالمطر يسوقها القدر حيث شاء، ولاتدري أنها سقت أرض رجل يزكي زرعه، أو لايزكي ! ولكن الذي

---

[٥٥] ٣|٤٩.

يسوق الماء إلى الأرض الجرز، هو العالم الوحيد، بخط سير الحدث وبالنتائج المترتبة على ذلك .

ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي

وانفرد يوسف بكل القرآن بمفردتين، ولم تتكررا، مفردة في هذه الآية (علمني) وأخرى بنفس السورة (علمتني) في الآية:١٠١." رب قد آتيتني من الملك، وعلمتني من تأويل الأحاديث " أراد أن يربط السجينين بالله الذي علمه مما يسمعون، ويعجبون منه، حتى ينأى بنفسه عن شبهة المنجمين والمدجلين. والنبوة وحي وإلهام وتوفيق، وليست ضربة كاهن !

وهذه من لوازم الدعوة، إظهار المعجزات والكرامات، حتى يظهر أن وراءه قدرة خارقةً، فتطمئن له القلوب والعقول، عندما يتكلم عن الجنة والنار وعالم الغيب، يطمئنون، ويؤمنون .

إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ

وهو مازال يعدد نعم الله عليه، بعد أن ذكر قدراته في تعبيره للرؤى، وإنباءه لهما بنوعية الطعام قبل أن يصل الطعام، وهنا يقول: إنه لم يلتبس بما التبس به الناس من الكفر بوحدانية الله والإيمان باليوم الآخر، بل من أول خطوة خطاها، تابع ملة أبيه إبراهيم...وكذلك سيدنا رسول الله، لم يلتبس، بما التبس به قومه منذ طفولته.

وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَآئِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللهِ مِن شَيْءٍ ذَلِكَ مِن فَضْلِ اللهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَشْكُرُونَ {يوسف/٣٨}

ماكان لنا، ولن يكون لآل بيت النبوة، أن نشرك بالله شيئاً، أو بعض شيءٍ، ونحن مغمورون بالهدى والتقوى والعفاف من فضل الله علينا، أن هدانا، ثم هدى بنا الناس . وقليل من الناس يعلم خصوصيتنا، ثم يشكر، لأنه انتفع بسببنا، وكثير لايعلم، ولا يشكر.

ياصاحبي السجن، الوفاء عند الأنبياء :

يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ {يوسف/٣٩}

وهاهو يردد: ياصاحبي السجن، من الوفاء للصحبة. والوفاء كل الوفاء عند الأنبياء والصالحين، وكلما نقص الوفاء نقص الإيمان، وبالعكس !

والسياق عليه أن يقول: أأرباب متفرقون خير أم رب واحدٍ، أو أألهة متفرقون خير أم إله واحد... ولماذا عدل عنه ؟

لايوجد مشترك تفاضلي بين الطرفين، حتى يكون عندنا واحد أفضل من الآخر، أأرباب من البشر والحجر أفضل أم الله الواحد القهار.

وبدأ مع السجينين ببذرة التوحيد ،تم زرعها، ثم بدأ يسقيها، وينميها.

مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَآؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ {يوسف/٤٠}

وتطور الأسلوب الدعوي إلى حدّ التقريع الخفي، كيف تأخذون حجرةً من الأرض وتقولون : هذه جوهرة أو تفاحة؟ أسماء بلا حقيقة، وأسماء أنتم الذين أطلقتموها على البشر والحجر بأنها آلهة. وتابعتم بها آباءكم وعطلتم عقولكم، ونسيتم لو تعددت الآلهة ستتعدد الأحكام والدساتير والمصالح ،

ولوكان هناك إله للمطر، وآخر للشمس، وثالث للزروع –كما تزعمون– وغضب إله المطر، وأوقف المطر، ما الذي سيحصل ! وهكذا...

إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلّهِ

فالحكم والأمر والتدبير كله لله في السماء والأرض، ولو أن أهل الأرض كلهم انقادوا لحكم الله، تحولوا إلى مجتمع ملائكي، فلا حروب، ولا أحزان، ولاتصادم....، ولما كثرت الآلهة في الأرض، كثرت الأهواء والدساتير، كانت ثمرتها الحروب المتكررة، والمظالم المتراكبة.

إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ

وجاءت مفردة العبادة هنا بمعنى الطاعة المنفذة، ويعزز هذا التوجه، هو السياق الذي يتكلم عن مصدر الأحكام، وتنفيذ هذه الأحكام الإلهية فقط، كما في قوله تعالى للذين يتبعون خطوات الشيطان، وينفذونها:" ألم أعهد إليكم يابني آدم ألا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين "[٥٦]

ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ

وبايحاءٍ ضمني، هذا الدين الحي بنفسه، والمحيي لمن يتمسك به، على عكس المبادئ الأخرى، هي ميتة ومميتة لمن يأخذ بها، وأكثر الناس لايعلمون حقيقة هذا الدين الفخم بنفسه، ومفخم ومعظم ورافع وناصر لمن يتمسك به، وفي الأرض قيم كثيرة –نظريات– في الأحكام والقضاء

---

[٥٦] يس| ٦٠.

والاقتصاد... ولكن القيم القرآنية أقوم منها، ويزكي الله قيم القرآن، بقوله تعالى:" إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم .."[٥٧]

يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِ قُضِيَ الأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ {يوسف/٤١}عران

يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ

هذه ميزة صحبة الصالحين ولو لمدة قصيرة، صبغتهم الوفاء وصبغة الله لاتتغير، لأن أهل الغدر،لايحسبون للمدة حساباً مهما طالت، ولكن متى حانت فرصة ولهم فيها مصلحة غدروا، ولو بآبائهم أو إخوانهم...

أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا

يخاطب الاثنين معاً، وبدون تحديد من هو؟ حتى يفرحا، ويتوبا معاً. وكلمة (رب) درات كثيراً على لسان يوسف في الآيات التالية، لِمَ ؟

-إنه ربي أحسن مثواي | ٢٣.

-لولا أن رأى برهان ربه | ٢٤.

-قال ربي السجن | ٣٣.

-فاستجاب له ربه | ٣٤.

- ذلك مما علمني ربي | ٣٧.

- أأرباب متفرقون..٣٩.

- فيسقي ربه خمراً ٤١.

- اذكرني عند ربك...فأنساه الشيطان ذكر ربه..٤٢.

---

[٥٧] الإسراء | ٩

- قال ارجع إلى ربك ٥٠.
- إن ربي غفور رحيم ٥٣.
- سوف استغفر لكم ربي٩٨.
- رب قد آتيتني من الملك ١٠١.

ولقد فطم الله يوسف عن أمه وأبيه وفصيلته التي تؤويه، وتولى تربيته، فأنَّى التفتَ يوسف لايرى إلا ربه الذي رباه ؟

أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا

فيها بشارتان للسجين، أولاً: النجاة، وثانياً:سيكون خادماً محظوظاً لأنه من سقاة الملك وفي الحفلات الراقية، والغالب على شراب الملوك الخمر في ذاك العصر، لأن في قاموسهم الماء شراب الحمير، واللبن شراب الرضع وعنه فطموا ، والعسل شراب المرضى.

وَأَمَّا الآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِ

وأما الآخر،لم يومئ إليه، تركه عمومياً، وإن كان يعرف نفسه. بأنه سيقتل، ويعلق فوق مفترق الطرق مدةً من الزمن، ليكون عبرةً، وهنا تقع الطيور الجارحة على الجيف المتاحة، ولا تميز بين إنسان أو حيوان، مظلوم أو ظالم.

قُضِيَ الأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ

والبت في هذا الأمر ليس ساعة الفتيا، وإنما قضي الأمر منذ أن خلق الله السموات والأرض، وبهذا قدم نفسه بأنه بشير ونذير، بشر أحدهما، وأنذر الآخر.

وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ {يوسف/٤٢}

وهذه نبوءة ليوسف، وقد تحققت فيما بعد، أن صاحبه المبشر بالنجاة سينجو، ويسقي الملك في الحفلات الخاصة، ويحتاج الملك إلى تأويل منام له، عندها قال له يوسف: أذكرني عند ربك.

فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ

فأسند النسيان للشيطان، ولم يسنده للهو، والمتع، والمجون التي تكون في مثل هذه القصور التي هي بمثابة ملهاة مفتوحة على كل الملذات، ففي هذه الأجواء التي فيها ماتشتهي الأنفس وتلذ الأعين، ينسى الواحد أمه وأباه، فأنى له أن يتذكر يوسف؟

ولكن لما صارت للملك حاجة، وكل واحد في القصر يريد أن يشرف بخدمة الملك، عندها تذكر صاحب يوسف يوسف، لأن له مصلحة شخصية معه الآن.

وتذكر بعد سنوات عدة، مابين ثلاث سنوات إلى تسع. ويوسف في الزنزانة. كما يقول المثل: الطير يتفلّى، والصياد يتقلّى.

هل هو نسيان فطري؟ أم أنه تقدير العزيز العليم، لما انتهت مدة المحكومية التي قدرها الله على يوسف، جاءت رؤيا الملك ، وتوالت الأحداث ضمن المخطط المرسوم في حياة يوسف.

ربط الله العقول عن رؤيا الملك، ليأتي بيوسف:

وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلاَتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِن كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ {يوسف/٤٣}

وكلام الملوك فيه دقة متناهية.

وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى... والرؤيا سر، وسر الملك صار مكشوفاً، بقوله: ياأيها الناس أفتوني في رؤياي، إن كنتم تعبرون الرؤى

قال: أرى... ولم يقل: أُريت...رأيتُ لمرة واحدة، والسياق الذي تأتي به أرى، إني أرى رؤيا تتكرر عليّ... وقدم السمان، وأخر العجاف حسب الترتيب الزمني. وعندما تكثر السنابل الخضر يسمن البقر، وعندما لايوجد إلا اليابس من الحشائش تصبح البقر عجافاً.

وقد ربط الله على قلوب الناس وعقولهم حتى يرشح يوسف للمسألة، وتسند له المهمة التي من أجلها جاء إلى مصر. كما حرم على موسى المراضع حتى يرجع لأمه !

قَالُواْ أَضْغَاثُ أَحْلاَمٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الأَحْلاَمِ بِعَالِمِينَ {يوسف/٤٤}

ورؤيا الملك كانت بمثابة المسابقة للحاشية، فاعتذروا، وظهر عجزهم، وقالوا: هي أضغاث من الأحداث المختلطة، والضغث ما يجمع بقبضة اليد من الحشائش، وهنا بقر يأكل ضعيفُهُ قويَّهُ، وسنابل تأكل أخرى، وهذه الأحلام النادرة تحتاج إلى عالِمين حقاً.

والسؤال: هل هم حقاً عاجزين، أم أن المولى ربط على قلوبهم وعقولهم وألسنتهم، حتى ترشح الأحداث يوسف إلى مهمته التي جاء من أجلها؟

نعم..." لكل أجل كتاب " والأمور مرهونة بأوقاتها.

وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَاْ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ {يوسف/٤٥}

وقال صاحب يوسف الذي نجا من السجن ومن الموت، والآن تذكر بعد بضع سنين، أن يوسف سأله أن يذكره عند ربه.

أَنَاْ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ

زعم في أول كلامه أنه هو ينبئهم، وفي آخر كلامه، أرسلوني إلى مكانٍ ما، إنها الأنانية الفردية والاستعلائية وصيد المواقف، وصيد مواهب الآخرين، يقول: أنا أنبئكم...، لماذا لايخبرهم؟ ولماذا يطلب مهمة للمغادرة إلى مكان ما، ولم يحدده؟ لأن المنافسة حادة، وقد يسبقه الآخرون إلى يوسف، ويعودون في الحظوة المرجوة عند الملك. أصحاب هذه المواقع محسدون من الخارج، ولكن من يعرف حقيقة ما يجري داخل القصور، وداخل الصدور من الغل والحسد...حياة لاتطاق، فهم كالبيضة الفاسدة، في كل الأحوال مرغوبة ومطلوبة لأن قشرها أبيض !

وصل بسرعة وفي كلامه تلطف وتفخيم وتعظيم لمن لهم عنده حاجة، وهذه من لوازم السياسة في تحقيق الأهداف.

يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنبُلاَتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَّعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ {يوسف/٤٦}

وكيف وصل بهذه السرعة ؟

لأن المسألة تخص الملك وهو ساقيه الخاص، وتتجلى القدرات السياسية في خطابه الناعم الدافئ المتودد: يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ... والصديقون: رتبتهم بعد النبوة، لقوله تعالى: فاولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبين والصديقين.." وقال في عيسى وأمه: " وأمّهُ صدّيقة " وجاء في الحديث الصحيح عندما رجف "أحد"، : اثبت أحد إنما عليك نبي وصديق

وشهيدان "[٥٨] ثم تتجلى قدراته في الدقة بنقل كلام الملك حرفياً، سبع وسبع... ثم تتجلى في السرية والتكتم على صاحب الرؤيا، حتى لايسبقه أحد بها إلى القصر، فقال: لَّعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ.

قال: يرجع للناس تكتماً، وليس يرجع للملك.

يوسف يعلن الطوارئ خمسة عشر عاماً:

ومهمة يوسف تأويل الرؤيا فقط، بينما يوسف استلمها رسالة ربانية، وعليه تنفيذ مضامينها قبل فوات الأوان، وما كل رؤيا تتحقق، ولكن يوسف أقرّ بأنها واقعة حتماً، والخطر المستقبلي على الأبواب، فأعلن حالة الطوارئ في تعبيره، وقدم خطة ومنهجاً للتعامل معها.

يوسف وهو داخل السجن، يأمر وينهى قيادة البلد – فَذَرُوهُ–

قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تَأْكُلُونَ {يوسف/٤٧}

وجاء مخطط يوسف من الغيب ومن خارج الرؤيا.يأمرهم: استمروا في الزراعة سبع سنين متواليه، وخذوا حظكم منه، والباقي يخزن، فلابد من بناء مخازن لكل موسم، ويتم التخزين مسنبلاً، حتى لاتأكله السوسة، ولعلها معجزة من معجزات يوسف الإدارية، وعلم الإدارة والتخزين المعاصر يصادق على هذه الظاهرة التخزينية، ويستثنى من ذلك ما يستهلكونه بنفس العام.

قَلِيلاً مِّمَّا تَأْكُلُونَ.

---

[٥٨] أخرجه البخاري حديث رقم (٣٦٧٥)

والسياق: فذروه في سنبله إلا ما تأكلون، ولكن جاءت قليلاً متقدمة، توحي بالاقتصاد حتى بالأكل.

ولو أن سائلاً سأل يوسف: أنت عشت بين القصر والسجن، فمن أين لك خبرة الزراعة والتخزين والتحصين؟ فالجواب: هذا مما علمني ربي، وقد علم الله النمل كيف يخزن، ويزرع، ويحصد..؟

وقد جاء في موسوعة: أسماء الله الحسنى[٥٩] ما ملخصه: وجدوا في الهرم بذور حنطة، فزرعوها، فأنبتت، وقد مرت عليها حقب عديدة، ويقول في حبة القمح –رُشيم ــ جاهز للاستنبات بعد ستة آلاف سنة.

وفي سبعينيات القرن الماضي شاع خبر بمدينة الرقة، وفيها السور العباسي منذ أنشئ (١٥٠)هـ ، لقد وجدوا سنبلة قمحٍ في لبنةٍ قلعت من السور، فزرعوها، فاستنبت.

ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تُحْصِنُونَ {يوسف/٤٨}

ثم تأتي سبع سنين شديدات، ولم يبين سبب الشدة من القحط أو الجفاف أو الجراد ...يأكلن كل المخزون في السنين الفائتة، ويتوقف البذار نهائياً، ولا أمل بنزول المطر في هذه المدة، ويجب إبقاء كمية للبذار فيما بعد السنوات العجاف، وجاء الواقع وصدق ما قاله يوسف، وهذا إعجاز في حد ذاته.

وفي القرن العشرين بدأ اللغز يتكشف:

---

[٥٩] موسوعة: أسماء الله الحسنى، د| راتب النابلسي، ج١\٨٤.

انفجار بركاني حجب الشمس عن المنطقة:

وفي أواخر ثمانينيات القرن العشرين، نشرت جريدة المدينة | جدة، بحثاً معربًا عن علماء البراكين، وعلماء الغابات، بأنهم فكوا هذا اللغز، وأجابوا على اللغز: لماذا تتوقفت الزراعة بمصر سبع سنين ومصر لاتزرع إلا على النيل، ويندر زراعتها على المطر؟

اجمعوا على التالي: ثار بركان شمالي مصر على الضفة الأخرى من البحر الأبيض المتوسط، هناك تقع إيطاليا وما جاورها، ثار بها بركان هائل وعلى مدى سبع سنين، وغباره ورماله شكلت سحباً غباريةً في السماء ثابتة، وقد حجبت قرص الشمس عن الأرض، وتوقف الإنبات في تلك المنطقة المحيطة بالبركان، ويوافق تاريخ ثوارنه مدة الجفاف في مصر، وساند هذا الرأي علماء الأشجار العملاقة في تلك المنطقة الإيطالية وما جاورها، التي عاصرت البركان توقف بها النمو سبع سنين من خلال قراءتهم لطبقات النمو المتكونة على الساق. وفوق كل ذي علم عليمٍ، وهذا إعجاز ليوسف وللقرآن وللإسلام.[٦٠]

وفي هذا العام ٢٠١٠م من الشهر الخامس ثار بركان في شمال بريطانيا، فغباره وصل إلى إيطاليا، وتركيا، وارتبكت شركات الطيران، واحتجبت الشمس من الغبار، ثم انعدمت الرؤيا في المنطقة المحيطة، لفترة محدودة.

---

[٦٠] لعلنا نحصل على رقم العدد وتاريخه، بمساعدة أحد القراء. أو المرجع الذي صدر عنه البحث.

وهذه نبوءة أخرى من خارج الرؤيا يقدمها يوسف هدية منه للملك وللمصريين جميعاً كردٍ للجميل الذي وجده في بيت العزيز.فقال:

ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ {يوسف/٤٩}

أصل الغوث النجدة بأي وسيلة، وفي أول العام الثامن ستنجلي صفحة السماء من الغبار البركاني وبعد سبع سنين عجاف يسوق الله الماء إلى هذه البقعة فتغسل الفضاء والسماء والأرض، وتعود الحياة باسمة وسترسل الشمس نورها، وتغدق السماء ماءها، على أرض قد ارتاحت من الزراعة سبع سنين، وتزودت بكثير من المعادن الذرية المتطايرة من البركان، فيكون موسماً هائلاً، تفيض فيه الأرزاق على الجميع، ولن يعرفوا أين يذهبوا بالفاكهة الزائدة قبل أن تتلف، فكلهم يعصرون ؟.

ولعل سائلاً يسأل لِمَ جاءت مفردة "سنين" في الخير والشر، وهي من خصوصيات الكرب، ومفردة عام في الخير:

- قال: تزرعون سبع سنين دأباً، والخير كثير وزائد عن الحاجة، ولكنهم في حالة استنفار وقلق وخوف من المجهول القادم، لذلك جاءت مفردة سنين.
- وقال: ثم يأتي من بعد ذلك سبع سنين شداد، جاءت المفردة في سياقها.
- وقال: ثم يأتي بعد ذلك عام، فيه يغاث الناس وفيه يعصرون. وهنا مفردة "عام" جاءت في سياقها. انتهى الاستنفار، والرماد، وطلعت الشمس....

ولقد جمع الله السنين والأعوام في آية واحدة، السنين للفترة الجهادية الدعوية النوحية عند نوح والأعوام للزمن: " فلبث في قومه ألف سنة، إلا خمسين عاماً..." مفردة السنة للشدة والكرب، ومفردة عام مقياس للزمن .

ولما سمع الملك، ماسمع ! من سجين يأمر وينهى ويخطط للمستقبل، وكأنه المسؤول والضامن لحياة الناس، ومما ترشد إليه الرؤيا:

- الأمر ليس مجرد رؤيا، بل رسالة ربانية فيها لطف بالبلاد والعباد.
- فيها تحذير واستنفار، فهي بمثابة حرب ضد الجوع والموت، يشارك بها الجميع.
- مشروع يوسف تجاوز ساحة المعركة من سبع خصب إلى سبع عجاف، إلى المواجهة العملية، ثورة زراعية تخزينية ، ثم ضبط اداري للتخزين والتقنين .

وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللاَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ {يوسف/٥٠}

وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ

الأوامر الملكية فورية: ائتوني به، حياً، ميتاً، حراً، عبداً...

فَلَمَّا جَاءهُ الرَّسُولُ

السجين يأمر، وينهى، ويرفض طلب الملك:

ففي هذه المرة جاءه الرسول- معرفاً -لأنه من عِلية القوم. وليس من الحاشية الخدمية،كما في المرة السابقة، لقد تطورت درجة التكريم والتشريف.

قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ

يوسف السجين المتهم يأمر رسول الملك أمراً بالرجوع، ولاينفذ رغبة الملك الذي أرسل بطلبه، ما السر؟

في الأرض قوتان متناهضتان، قوة أصحاب النفوذ والسلطان والمال، يطاعون فيما يأمرون به، ويمدحون بوجوههم بما يحبون، ويقول الناس بغيبتهم، مايشاءون همساً أو علناً.

وقوة ربانية متمثلة بالأنبياء والعلماء والصالحين، يحبهم الناس على إفلاسهم، ويوقرونهم، ويفدونهم بأرواحهم، ويقولون في وجوههم كل شيء حتى مايؤذيهم، وإذا ماغابوا عنهم، أثنوا عليهم خيراً، ولو كانوا في عداد الموتى.

يوسف يستمد قوته من الملك المالك، فقوته خالدة، وملك مصر يستمد قوته من بقعة من الأرض لزمن معين، ثم يموت، ويقال فيه ما يقال، و يوسف "ملك" العفاف والإدارة سيبقى ذكره حياً بين الناس، ومملكته ليس لها حدود. وهل يستوي الفريقان: ملك راحل... وآخر مقيم؟

فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللاَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ

يوسف يتكلم من مصدر قوة، يستمدها من ملك الملوك، وخضع الملك المصري لأمر سجين يقال له: يوسف، ، وجاء الملك بالنسوة، وربما خبر يوسف وصل عند الملك في يومها من خلال العيون، وربما كانت صورته مشوشة، وكرر يوسف حادثة الجزارة والتقطيع لأنه يوم نادر في تاريخ البشرية، يوم الجنون الحريمي الجماعي، يوم يصل الشبق والسكر بأهله إلى حد الانتحار الجماعي.

إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ

وكأنه يرسل رسالة للملك بأنه مؤمن بربه، وله عناية من الله، وكأنه يقول: إن لي رباً لايضيعني، مهما كانت المكائد كبيرة ومحبوكة .

وأوامر الملوك نافذة، وحضرن فوراً أمامه.

أنصفن يوسف، ولم يدافعن عن أنفسهن:

قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَاْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ {يوسف/٥١}

وبدأت المحكمة التي يديرها القدر من السماء، وإن كان المتهم غائباً، ولا محامي له، يكفيه أن الله أحكم الحاكمين،يدافع عن الذين آمنوا، وأنه على كل شيء شهيد، فألهم الجميع قول الحق، وأنطق الجميع كلمة الحق، كما هو الحال يوم القيامة تنطق الجلود، وتتكلم الأيدي وتشهد الأرجل، وهي المحكمة الوحيدة التي لم تحضرها شياطين الإنس والجن.

والملك مستيقن ببراءة يوسف، وبدأ معهن بقسوة شديد بقوله: ماخطبكن ؟ ماأمركن ؟ ما الأمر... مسّهن مسّاً، وأوجعهن، ولم يفصح.. ومفردات الملوك بالميزان .

قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ

قطع عليهن الطريق فوراً، حتى لاتقول واحدة منهن كذبة أوتتنكر أو تحيص، أو تقول كما قالت : امرأة العزيز للعزيز عند الباب، وهي متلبسة

بالجريمة: ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً...على مبدأ ضربني وبكى، وسبقني واشتكى.

استبطن كلام الملك الاستنكار واللوم لهن جميعاً، ولم يفرد امرأة العزيز عنهن، وكان مقتنعاً باعتدائهن على يوسف، فقال للجميع مباشرة: ماخطبكن....؟ ينكر عليهن مراودة يوسف وبشكل جماعي وعلى المكشوف، فهذا أمر خطب جلل !

قُلْنَ حَاشَ لِلّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ

بفم واحد: قلن: حاش لله..... أنصفن يوسف، ولم يدافعن عن أنفسهن...سبحان الذي يملك القلوب والألسن، ويجعلها تشهد على أصحابها، كما في قوله تعالى: " وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا، قالوا: أنطقنا الله الذي ينطق كل شيء " وفي طبيعة الأنثى ولضعفها، تتنكر على أشياء تافهة، حتى لايلحقها ضرر، فكيف يعترفن بجرم كبير ؟ إنه التدخل الإلهي، لحراسة سمعة أنبيائه ورسله، ولنجاح الرسالات التي ينادون بها .

قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَاْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ

وقال صاحب البحر: "حصحص: ثبت واستقر ، ويكون متعدياً من حصحص البعير ألقى ثفناته للإناخة قال : حصحص في صم الصفا ثفناته.[٦١]

١- [٦١] تفسير البحر المحيط - (ج ٧ / ص ٢٩) والثفانة هنا جلدة متصلبة كالترس وهي موجودة في صدره، وفي ركبه الأربع، وكلما يبرك على الأرض،يبعد من تحته الحصا هنا وهناك، حتى يطمئن للين الأرض، فيستقر على هذه الوسائد.

ولماذا حصحص الحق الآن، ولم يحصحص عندما ألفت سيدها لدى الباب؟

لكي تجري الأحداث ضمن المخطط المرسوم لها ويسمع الملك منها مباشرة، ويطمئن ليوسف اطمئناناً كاملاً.

وانتقل الكلام ليوسف وهو المرجح دون غيره، لأن كلامه ثمرة إيمانية طويلة، ولو كان الكلام لامرأة العزيز، أنى لها مثل هذا الزهد والصفاء ؟!

ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴿يوسف/٥٢﴾ وَمَا أُبَرِّىءُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّيَ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ {يوسف/٥٣}

وهذا يوسف يقف منتصراً بعد صراعٍ نفسي مرير، قائلاً:

ليعلم ربي في السماء، ويعلم العزيز في الأرض، أني لم أخنه بالغيب، لأن الخائن خائن لنفسه قبل أن يخون الناس، ويعترف أنه مرّ بمرحلةٍ صعبةٍ، بين حجري الرحى، بقوله:

وَمَا أُبَرِّىءُ نَفْسِي

مرحلة الصراع بين أمرين أحلاهما مرٌ، وهو ليس مَلَك خلا من كل الدوافع، وهو يدفع عنه المهاجمات من جهة، ويحجز صبوته، ويلجم فطرته وشهوته من جهة أخرى، ولولا رحمة ربه وألطافه به، لصبا إليهن، وبعدها: يعلل، ويبرر زلته، إن ربي غفور لي، ولهن، ورحيم بي، وبهن.

ولم يدعُ عليهن، أو يذكرهن بسوءٍ أبداً، وهذا من الصبر الجميل، وبعض الناس يدعو على أمه، لو قدمت عليه أخاه.

وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مِكِينٌ أَمِينٌ {يوسف/٥٤}

وبعد محاكمة الملك للنسوة، وانجلت الحقائق، وتألق، وتأنق نجم يوسف، قال الملك: ائتوني به استخلصه لنفسي، وكان له ذلك، لكن يوسف مرتبط بمهمة جاء من بلاد الشام لأجلها، وقذفته الأقدار متنقلاً في البيوت إلى السجن إلى عرش مصر، فاعتذر عن القصور ليعيش في المستودعات، التي تتسرب منها مقدرات الأمة، بفعل الخونة، يوسف يحرس المستودعات التي تعشعش بها النفوس الخبيثة، فتسرق، ثم تحرق البقية الباقية، ويحول الخائن بعد الحريق إلى مستودع جديد، فهو نار، يلتهم كل شيء، وينجو بفضل القوانين التي تحرس القوانين، فأين القوانين التي تحرسها القلوب والأفئدة المتقدة بالإيمان؟

لأن المستوعات تحتاج إلى الأيدي المتوضئة، وإلا تسربت الأموال العامة، وساعتها..ولات حين مندم.

يوسف يفضل العيش بالمستودعات على القصور:

قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَآئِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ {يوسف/٥٥}

والخزائن المطلوبة لهذا المشروع،لم تكن موجودة بعد على الأرض، ويحتاج إلى مستودعات تستوعب استهلاك الناس ومواشيهم لمدة سبع سنوات، واستهلاك السنة الثامنة مع كمية البذار، ويحتاج الناس إلى ما يأكلون حتى ينضج المحصول، وهذا الكم الهائل من المباني أو المغر أو السراديب، تحتاج إلى شركة إنشاءات ، وتكون موزعة في كل المدن وقريبة من المحاصيل الزراعية، وعليه أن يوسع في المساحات المزروعة، ويرفع مستوى الإنتاج،

ويخزن السنابل فقط بدون القش والتبن، وهو حفيظ لعدد المخازن وطاقاتها التخزينية، وأماكن وجودها، وحفيظ للحقول ومساحاتها وإنتاجها، وحفيظ لحياة الناس والحيوان الداجن، وكم يستهلكون ؟

قال يوسف للملك: تخصصي في حفظ الأرزاق، وعلمي: بأحوال الحبوب والرطوبة والسوسة، وبتوزيع الطاقة التخزينية على الناس بقدر معلوم، لاتموت الناس ومواشيهم، ولاينفد المخزون.

وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاء نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاء وَلاَ نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ {يوسف/٥٦}

تمكن يوسف بالأرض من خلال ضبط موازين العدل في زمن الاضطراب والشدائد التي تطيش به الموازين لصالح المتنفذين. ويموت الضعفاء تحت الأقدام.

وتمكن يوسف بالأرض- وليس بالوظيفة والقصر المنيف- كان يتطوف ليل نهار في السهول والحقول مع الأيدي العاملة، وهنا موطن الإدارة أن تعيش بين الناس، وتجوع الإدارة إذا جاع الناس، وتمرض إذا مرض الناس، وتموت قبل أن يموت الناس، لأنهم من الناس، والناس منهم ، وهو تحقيق لقوله تعالى: "...وأولي الأمر منكم... " وهذا عمر في عام الرمادة لم يغتسل من جنابة، وكان يقول لبطنه: قرقري أو لا تقرقري، لن تذوقي السمن حتى تذوقه أمة محمد، كونه بدوياً اضربت أمعاؤه، وتغير طعامه من السمن والأَقِط، والتمر، إلى الخبز والزيت.... بتصرف[٦٢]

---

[٦٢] من كتاب: أخبار عمر، لعلي وناجي الطنطاوي، ص|١٠٨، وما بعدها.

يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ

يتطوف بالأرض ويقف على كل شبر صالح للزراعة فيحييه ويستثمره، بما يصلح له من الحبوب، وفي المحصلة كله في رصيد الأمة، وليس في رصيده الشخصي.

ومن خلال دفعه للمجاعة والموت، ودفعه للصوص التخزين وأصحاب الاستثناءات، على حساب الضعفاء، ولعل سائلاً يسأل، لِمَ قال: مكنا ليوسف (في) الأرض...؟ ولم يقل (على) الأرض ؟ لأنه صار جزءاً من أرض مصر، ومن تاريخ مصر إلى يوم القيامة، بل هو(نهرالنيل) الذي لايَغرق، ولا يُغرِق، يعطي، ولا يأخذ، هذا هو النهر الخالد..

هو أراد أن يتبوأ المخازن، والله أراد له أن يتبوأ معالي الأمور، ويبقى يوسف أسوة حسنة إلى يوم القيامة.

هو أسوة ! ولكن لمن ؟ لمن يعشقون مجتمعاتهم من كبير القوم إلى رب الأسرة، كلكم راعٍ، وكل راعٍ مسؤول عن رعيته.

نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاء

رحمة ربي مسددة، لاتكون بالمصادفة ولا بالخطأ، تصيب مستحقيها، مع تحديد الزمان والمكان، حتى يعتمد الناس على العمل، وليس على المصادفات التي لاتصلح قاعدة للمكافآت، أو الإستثناءات التي لاتتكرر، كما ورد في الحديث الشريف الصحيح قصة البغي التي سقت كلباً، فغفر لها، وكالذي قتل مائة قتيل فغفر له، وهذا دليل على سعة رحمة الله، وليست قاعدة، وإلا كانت البغايا سقين كلاب الأرض عصائر مشكلة وممزوجة بالعسل والحليب . وتصبح الكلاب محسودة حقاً، لأنها تعيش عيشة مترفةً.

و لايكتفي أحد من المجرمين بقتل تسعٍ وتسعين نفساً، حتى يتمها بالمائة ــ يارب....حوالينا ولا علينا- وهذا الفهم الخاطىء لمثل هذه الأحاديث الصحيحة، جعل سعة لأصحاب النفوس الضعيفة، بأنهم يعتدون في يوم السبت، ويعقرون الناقة، ويعبدون العجل، وشعارهم : وسعت رحمته كل شيءٍ . أو شفاعة النبي تحمل عنا كل الأوزار....وهذا الفهم المعوج، لين المسلمين المتأخرين...وجرأهم على المحارم.

وَلاَ نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ

وإن الله لايضيع أجر عمل عاملٍ من ذكر أو أنثى، ولكل عمل درجات، مقبول، ووسط، وجيد، وممتاز، فميز هنا بين الحسن والأحسن، فوعد بمكافأة المبدعين الأُول، ومازال السياق في العمل واتقانه والنهوض به، فمن أحسن في حرفته وطورها، هو أول المكافئين، وما وصلت إليه البشرية اليوم من تقنية إلا بجهود المبدعين لأعمالهم، والذين خدموا البشرية، لذلك يبشرهم ربهم بأجر زائد على أجر العاملين. ففي الدنيا يوجه الأنظار إليهم، ويجعلهم أئمة في تخصصهم. وفي الآخرة لهم، ما لا عين رأت ولا أذن سمعت .

منطلقنا نعطي ولا نأخذ، ومنطلق غيرنا يأخذ ولايعطي:

وَلَأَجْرُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ آمَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ {يوسف/٥٧}

ففي هذه الآية تحديد المنطلق في كل عمل، وحديث: إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ مانوى..." الشيخان.

ولعله جاء في هدي الآية، وهذا الفارق الهام العظيم بل القول الفصل بين حضارة الإسلام وغيرها من الحضارات...في تحديد المنطلق. أمة الإسلام وجدت للعطاء ، وأمم أخرى للجباية..ولا سيما الفرنجة.

- منطلق المسلم ماذا يقدم للآخرين من خلال عمله، ومنه: الطب الإسلامي مجاني، وله أوقاف خيرية تغطي مصروفات العاملين والمرضى...؟ بينما الطب عند الأمم تجاري في أحسن أحواله.
- بينما منطلق غير المسلم ماالذي يجنيه، ويجبيه من الآخرين من خلال عمله؟

وبعد أن تسربت روح الحضارة الغربية إلى مناهج حياة المسلمين، وهي حضارة للجباية، وليس للعطاء، نجد أن أصحاب الشهادات العلمية بعد أن يتخرجوا، إذا لم ينجحوا في الطريق المشروع، توجهوا إلى طرق معوجة تختصر الطريق إلى الغنى السريع بلا قيمٍ ولا أخلاقٍ، وكم عمارة سقطت على ساكنيها؟ وكم من سدٍّ إنهار، ودمر ماوراءه من العباد والبلاد، وكل الذين وقعوا عليه، وعلى جاهزيته، لايوجد معهم راعي غنمٍ أو عامل؟ وكم من إنسان جاء إلى المشفى يمشي على قدميه، خرج معاقاً على دراجة طيلة حياته، ومهمة الطب أن يحافظ على الصحة الموجودة، ثم يحسنها ؟ وليس يحول الصحيح إلى معاق، ولايسألون عما يقترفون، لأن الذين سيحاسبونهم من نفس الفصيلة، إلا ما رحم ربي. أزمة إيمانٍ وقيمٍ، وليست أزمة شهادات.

وَلَأَجْرُ الآخِرَةِ خَيْرٌ

والخيرية بأجر الآخرة في الديمومة، بينما أجر الدنيا منغص بالموت والعلل، والذين انطلقوا من أعمالهم بنية إيمانية، وكانوا يتقون ألا تتلوث أخلاقهم الإيمانية، وينعكس على مسيرة الإيمان عند العامة.

وانتقل المشهد إلى إخوة يوسف فجأةً، و لاندري كيف تسامعوا خبر الميرة ؟ وكيف وصلوا؟ وكيف كانت النظرة الأولى من الطرفين بين يوسف وإخوته؟ من عرف من ؟ ومن تشكك؟

وَجَاء إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ {يوسف/٥٨}

جاءت فاء (ف)عرفهم، بعد هنيهة من الوقت لتغير ملامحهم بالشيب، وهم أكبر منه سناً، وهم له مشبهون ، لأنهم تركوه طفلاً، فتغير كثيراً، ولكن جمال يوسف يستوقف العين، ويحرك الخيال. فهم بين بين.

ولما استضافهم وأحسن إليهم بالضيافة وبالمكيال زيادة على أمثالهم من طالبي الميرة، فاضوا في الحديث عن أنسابهم وأحسابهم وأحوالهم العائلية من ذكور وإناث، فاطمأنوا له، واستوثقوا منه، أنه يكرمهم من أجل السلسلة الذهبية، وكان أبوهم يعقوب وجدهم إسحاق ثم إبراهيم...عليهم الصلاة والسلام.

بدأت محنة إخوة يوسف:

وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ أَلاَ تَرَوْنَ أَنِّيَ أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَاْ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ {يوسف/٥٩}

وهنا بدأت محنتهم، وهذا الكيد من يوسف ليس انتقاماً من كيدهم، ولكن فيه حِكم لم نُحط بها، كما لم يحط موسى عليه السلام بما كان يصنع

الخضر بالسفينة، والغلام، والجدار، حتى قال له: وما فعلته عن أمري، ذلك تأويل مالم تسطع عليه صبراً.

وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ

ولما جهزم بالميرة ورد لهم سراً ما دفعوه من نقود، وضعت داخل الميرة، وحجم النقود لايلفت الانتباه، وطلب منهم أن يأتوا بأخ لهم من أبيهم من دون بقية العائلة ولحكمة ما. لم يفصح عنها القرآن.

قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ أَلاَ تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَاْ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ

وذكرهم بتفضله عليهم بالكيل الموفور الذي يحملونه، وكذلك تمييزهم بالسكن والإعاشة والضيافة.

قال أنا خير المنزلين، ولم يقل: أنا خير الكيالين لأنها مهمة العمالة، بينما خير المنزلين لأنه الوحيد الذي يعرفهم من أهل مصر، ويعرف مكانة أبيهم وجدهم. وهذه أخلاق النبوة، إنزال الناس في منازلهم.

ومن أخلاق رسول الله صلى الله عليه وسلم إكرام وجوه القوم، وإنزالهم منازلهم. حتى ولو كان الضيف يهودياً أو نصرانياً أو مشركاً. يستقبلهم في مسجده وفي الروضة الشريفة، ويبسط لهم رداءه إن كانوا من علية القوم، ويخدمهم أحياناً بنفسه.

ولعل سائلاً، يسأل: لِمَ ؟

الضيافة في الإسلام حقوق مستوجبة، فيدفع النبي للناس حقوقهم أولاً، ثم عندما يودعهم، يعرض عليهم الإسلام، ويبدأ يطالبهم بحقه...!

ولو لم يدفع لهم النبي حقهم،يصعب عليه أن يطالبهم بحقه ...

هذه قيمنا! هذه حضارتنا!.

فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلاَ كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلاَ تَقْرَبُونِ {يوسف/٦٠}

فاشترط عليهم إن لم يأتوا بأخيهم من أبيهم وهو شقيق ليوسف من أمه وأبيه، سيمنع عنهم الكيل، وحذرهم من الاقتراب من مصر.

قَالُواْ سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ {يوسف/٦١}

بفم واحد قالوا: سنراود وبمحاولات كثيرة عنه (أباه)، ولم يقولوا أبانا، لأن العلاقة الوداية بينهم مجروحة منذ غياب يوسف.

وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُواْ بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انقَلَبُواْ إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ {يوسف/٦٢}

وكرر لعل مرتين، الأولى: للنقود، فمن الصعوبة تمييز النقود من دراهم أو دنانير، إن كانت هي هي، أو نفس العدد ولو كانت بضاعتهم من الجلود تكون معروفة فوراً ومنفوشة وتكتشف حيلته من أول يوم.

ولعل الثانية: لعلهم يرجعون بأخيه أو بدونه، ويأخذون ميرة ثانية لأهلهم، ومستعد للتنازل عن شرطه عليهم. وبأي علة يقدمونها، لأنه يتصور من الصعوبة إقناع يعقوب المجروح منهم من قبل، أن يسلمهم الولد الثاني.

فَلَمَّا رَجِعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُواْ يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ {يوسف/٦٣}

قالوا ياأبانا: سيمنع منا الكيل مستقبلاً، لأمرين: أحدهما: من أجل الضغط على أبيهم، والآخر: لأخذ الأخ المطلوب من قبل يوسف معهم .

وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ

تعهدوا حصرياً (له) حافظون، لأنهم قد فرطوا من قبل بيوسف.

قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلاَّ كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَاللّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ {يوسف/٦٤}

يعقوب عليه السلام لم ينس الجرح القديم، وكيف يلدغ من جحر مرتين؟ لكن عنده بشائر ما، من خصوصيات النبوة، بأنه محفوظ، لذلك جاءت على لسانه: " فَاللّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ " لأنه مطمئن القلب، بينما في يوسف، قال: أخاف أن يأكله الذئب...." لأن الأنبياء والصالحين هدوا إلى الطيب من القول، فكلماتهم رشيدة ومسددة بإلهام، كما في قوله تعالى: " وهدوا إلى الطيب من القول.."

وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَاعَهُمْ وَجَدُواْ بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُواْ يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ {يوسف/٦٥}

وهذه الأحداث المتسلسلة توحي، بأن أولاد يعقوب مجرد وصولهم دخلوا متعجلين على أبيهم، وقالوا: يا أبانا منع منا الكيل....

ولما فتحوا متاعهم وجدوا ميرتهم كاملة، وفي داخلها صرة دنانيرهم أوفضتهم، فسيطرت عليهم الفرحة، فطاروا بها إلى أبيهم ثانية.

قَالُواْ يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي

ما نبغي بعد كل هذا العطاء، هذه الميرة، وهذه النقود ردت إلينا؟ وفي الرحلة القادمة، ميرة، ونقود، وبعير زائد...ما نبغي !!

قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلاَّ أَن يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ {يوسف/٦٦}

يعقوب يطالبهم بميثاق يشهد الله عليه:

قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلاَّ أَن يُحَاطَ بِكُمْ

طلب منهم قسماً عظيماً سيأتون به مهما كانت الظروف، إلا إن كان الأمر فوق الطاقة، وقد أحاط بهم القدر من كل الجوانب، وفي هذا الاستثناء، ترشيد من الله ليعقوب أن يترك فرجة في الباب، ولايغلقه، لتمرير الحدث القادم. فقال: إِلاَّ أَن يُحَاطَ بِكُمْ

وميثاقهم الآن ميثاق صدق، ونيتهم نية طيبة.

فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ

فأقسموا له بالإيمان المغلظة بالحفاظ عليه.

قَالَ اللهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ

وأشهد الله عليهم زيادة في التأكيد، وقد استحضر يعقوب اسم الله على هذا التعهد، لعله مما قاله جده سيدنا إبراهيم : ليطمئن قلبي.."

يعقوب متنبئ لحدث ما داخل مبنى الميرة:

وَقَالَ يَا بَنِيَّ لاَ تَدْخُلُواْ مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُواْ مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللهِ مِن شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ {يوسف/٦٧}

حار أهل العلم في هذه الوصية، بعدم الدخول من باب واحد، ولو بين الواحد والآخر مدة، إلا من أبواب متفرقة. ويستوحى من النص والسياق، بأن يعقوب عنده من معطيات النبوة بأنه سيحدث لهم حادث ما، بعد دخولهم مركز الميرة، ولكنه غير محيط به، ويتجلى ذلك في قوله:" وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللهِ مِن شَيْءٍ " متيقن بوقوع مكروه لهم، ولكن خارج الطاقة، معرفة تفاصيله.

لذلك أمرهم بالتفرق، حتى إذا وقعت الواقعة لاتحصد أكثر من واحد.

إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلّهِ

استسلم للقدر، وسلمهم الولد الثاني، وهو خائف من مجهول، قد قضى الله وحكم في المقدرات، وإن الله بالغ أمره لامحالة، وليس لأحد من الأمر شيء.

عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ، وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ

يقدم نبي الله يعقوب عليه السلام نفسه كأسوة وقدوة، هكذا يكون التوكل، آخذ بكل الأسباب والحيطة، ثم دفع الأولاد إلى السفر، وهكذا يتوكل المتوكلون، وكأنه الدرس الأول من بدايات التوكل الصحيح.

وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ اللّهِ مِن شَيْءٍ إِلاَّ حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ {يوسف/٦٨}

ونفذوا أمر أبيهم على البعد، المهم تنفيذ الأمر، و النتيجة بيد الله، ولعلهم بتنفيذ أمر أبيهم –وهذا من البر– يكرمهم الله، ويدفع عنهم السوء والمكروه، وهذه من دقائق فقه التربية، و النتيجة فيما يترتب عليه من البركة والرضا، لذلك لابد من التسليم للأنبياء، وتنفيذ أوامرهم مع التسليم.

وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ

ماكان ليعقوب أن يقول كلاماً، أو يأمر أمراً على غير هدى، والله زكى علمه – هنا – ليدفع المتوهمين عنه، بقوله: " وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ " غزير كبير مبارك، ثم يزكي الله المصدر الذي أخذ منه يعقوب مما علمناه :" لِّمَا عَلَّمْنَاهُ " من عندنا.

وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ

ولكن أكثر الناس لايتدبرون اللطف بين الله وأنبيائه وأوليائه، وهي محجوبة عنهم إلا من آتاه الله شيئاً من عطائه.

مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ اللهِ مِن شَيْءٍ إِلاَّ حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا .

الآية تمس السر الذي كتمه يعقوب، وأمر أولاده أن يدخلوا مكان توزيع الميرة متفرقين، لأنه رأى من نفحات ربه مناماً أو يقظة سيقع عليهم مكروه ما داخل الميرة، وتحقق ذلك عندما حُجز أخوهم كسارق، ووقعوا في جبٍّ من الهم والنكد، والآية تزكي هذا التوجه، ومارآه يعقوب كأنّ لديه علماً مسبقاً به: " وإنه لذو علم لما علمناه "

ولاندري كيف تحركت القافلة من بلاد الشام إلى مصر، وماحجم الأماني التي تحدوهم، وما يدرون، ماالذي يخبئه لهم القدر؟.

وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّيۤ أَنَاْ أَخُوكَ فَلاَ تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ {يوسف/٦٩}

ولما دخلوا على يوسف قد عرفهم جميعاً، وطوى القرآن كثيراً من المشهد، هل عرف الأخ الوافد أخاه يوسف من النظرة الأولى، لأنه عندما افترقا كانا صغيرين... واستخدم القرآن مفردة: (آوى) إليه آخاه، وهذه المفردة جاءت في سياق المنّ على المهاجرين، ولله المنّة والفضل، بقوله تعالى:" فآواكم وأيدكم بنصره "[٦٣] وزكى بها الأنصار بقوله تعالى:" والذين آووا ونصروا، أولئك هم المؤمنين حقاً "[٦٤].

---

[٦٣] ٨|٢٦.

[٦٤] ٨|٧٤.

وتفيد الإقامة الطويلة، في ظل أمن وأمانٍ :" فأووا إلى الكهف، ينشر لكم ربكم من رحمته، ويهيء لكم من أمركم مرفقاً.."

ولما خلا يوسف بأخيه، فُتِحت جراحٌ كثيرة، وشكاوى مريرة من إخوتهم، وزاد الأخ الصغير أموراً عندما انفردوا به بعد يوسف. وبدأ يوسف يربت على كتفي أخيه، ويهدئه، ويقول له: أنا أخوك، من باب النخوة الفطرية والحمية وتسجيل المواقف، وحتى الآن موجودة هذه النخوة عند البدو" ونا أخوك "

إِنِّي أَنَاْ أَخُوكَ فَلاَ تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ

ومفردة: الإبتئاس، لم تكرر إلا مرتين لنموذجين نادرين من البشر مع إخوة يوسف، ومع قوم نوح. لغلظ أكبادهم، ولسوء صنيعهم، ولكونهم نماذج لم تتكرر.

وكانت معاناة الأخ الصغير مع أُخوة العصبة، تشبه معاناة نوح مع قومه، فعزاه الله وصبره بقوله: " فَلاَ تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ"[٦٥]. وهنا تحرك المشهد وكأنه يكرر دور الخضر.

يوسف يقوم بخرق سفينة العير، ويحتجز أخاه:

---

[٦٥] ١١|٣٦.

وبدا يوسف كأنه يقوم بدور الخضر في خرق السفينة وقتل الغلام، بلا مبرر ظاهر للناس، ...فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ {يوسف/٧٠}

ولما جهزهم للرحيل دس في متاع أخيه -لأمه وأبيه- آنية للسقاية يشرب بها العامة، ثم تحركت القافلة والمتهم معها ، ومعه سر يوسف، ولم يُحدث إخوته بأن عزيز مصر هو يوسف باتفاق معه، ولاندري هل كان على علم بالسقاية وبما يجرى، وضمن خطة متفق عليها مع يوسف، أم أنه لايعلم عن خطة الصواع شيئاً، سوى التكتم على اسم يوسف.

ثم نادى منادٍ: يا أيها القوم الشاميون -من دون الناس- إنكم لسارقون. ودليل براءتهم، لايعرفون عن المفقود شيئاً، قالوا ماذا تفقدون ؟

قَالُواْ وَأَقْبَلُواْ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ {يوسف/٧١}

إلتفتت وجوههم نحو الصوت وتقدموا نحوهم، ما الخبر ؟

وكانت القافلة قد تحركت لكنها في الحمى، وفي طرف بعيد جاءهم الصوت، وتقدموا، لتجلية الأمر، ودفع التهمة. وهم مذعورون.

قَالُواْ نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَن جَاء بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَاْ بِهِ زَعِيمٌ {يوسف/٧٢}

بقدرة قادرٍ تحولت من سقاية-آنية كبيرة- لاقيمة لها، إلى صُواع الملك النادر العزيز، وأضافوه للملك أيضاً حتى يأخذ أهمية من

المفتشين ومن الناس، وهكذا تلعب ساسة القوم بالناس بين الترهيب والترغيب.متى شاءوا ؟

قَالُواْ تَاللّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ {يوسف/٧٣}

وأقسم إخوة يوسف في وجه عزيز مصر: لقد علمت يامولانا حالنا بالتفصيل وأننا من أسرة النبوة، وما كنا لنسرق، ولن نكون سارقين.

قَالُواْ فَمَا جَزَآؤُهُ إِن كُنتُمْ كَاذِبِينَ {يوسف/٧٤}

وبدأ الحوار المبرمج للوصول للهدف المرسوم في القصة. فما جزاؤه من وجد عنده، وتبين كذبكم وتستركم عليه؟

قَالُواْ جَزَآؤُهُ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ {يوسف/٧٥}

دار حوار محكم حوّلهم من خصوم متهمين إلى قضاة من حيث لايشعرون، وهم حكموا على السارق، وقالوا: السارق جزاء الصواع، وهكذا جزاء كل ظالم لنفسه وأهله.

ولعل الحكمة من هذه المكيدة، الإتيان بالأخ الصغير إلى يوسف وضمه إليه، واحتجازه عنده، ضماناً لسلامته قبل أن يكتشفوا أن يوسف مازال حياً ، وبلغ من المجد ما بلغ، وهم أبعدوا يوسف لسبب فطري، وهي مسألة حبية قلبية فطرية لايملكها يعقوب، فكيف الآن ويوسف عزيز مصر،وكان المرجح عند يوسف أنهم سينتقمون من أخيه، بداهيةٍ من الدواهي. وأبوه شيخ كبير لايستطيع أن يدفع عنه شيئاً. والله تعالى أعلم.

يوسف احتجز أخاه يحميه من الانتقام:

فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاء أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَاء أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلاَّ أَن يَشَاء اللّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّن نَّشَاء وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ {يوسف/٧٦}

فبدأ يوسف بنفسه بأوعيتهم قبل وعاء أخيه ليبعد الشك عنه، فاستخرجها من وعاء أخيه، وسط الصدمة وذهول الجميع، ووقع ما كان يتوجس منه يعقوب.

كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ

وكدنا ليوسف ما قام به، وبهذا كان يوسف مأموراً وليس مخيراً، كما أُمر الخضر بخرق السفينة...، ولله الأمر من قبل ومن بعد.

وبهذه الإبانة -كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ- دفع الله أية تهمة عن يوسف، نحو: لماذا يفعل هذا المكر، وهو نبي ؟

مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلاَّ أَن يَشَاء اللّهُ

ولولا فضل الله ومنّه على يوسف وعلى أخيه، من أين يكون له هذا التدبير الذي أوصله إلى عرش مصر، ثم ألحق به أخاه ؟.

ولولا التدبير الإلهي ما كان ليوسف أن يستل أخاه كالشعرة من العجين من باب الاحتياط خوفاً عليه من إخوته، ويصبح في حمى الملك، واالتدبير الإلهي هو الذي أوصله إلى مرتبة عزيز مصر، وصار يعطي من يشاء، ويمنع من يشاء، ويستبقي من يشاء، ولما شاء الله أن يتحول يوسف من سجين متهم بأمر يمس كرامة مصر، إلى عزيز

مصر، وقد كان. فالذي نقّل يوسف... وسلمه، هو الله الذي نقّل أخاه وسلمه، وهما الآن في حماية دولة ونظام مرهوب.

دِينِ الْمَلِكِ

قال: في دين الملك، ولم يقل: دين المملكة، أو دين المصريين، أي انضم إلى عِلية القوم ،وصار جزءاً من أجنحة الملك، فأينما يطير، يطير معه.

أو أراد بدين الملك النظام العام، ولكل مجتمع بشري أو فطري كالنحل والنمل عنده نظام في الدخول والخروج والتكاثر والتغذية والعمل والسلم والحرب،يلتزم به الجميع. هذا النظام سمّه ديناً، فلسفةً، أيدلوجيةً...

نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّن نَّشَاء وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ

نرفع –نحن– من نشاء رفعه، وليس هناك مجال للوساطة أو المصادفة، ونعلم من نرفع، وكم نرفعه ؟

وفي هذه الآية إيحاء إلى كل حاسد وحاقد، وإن كان الكلام المباشر لإخوة يوسف، كيف أوصل الله يوسف قمة المجد؟ ودفع بهم الحسد أن يتخلصوا منه، ويخلوا لهم وجه يعقوب كما توهموا، وخسروا الاثنين معاً، ورفعه الله درجات عليهم، لأنهم لم يرضوا بقضاء الله، الذي يختص برحمته من يشاء، وهذه مشكلة الحساد يعترضون على الله في تدبيره، وفي اختصاصه لعباده بفضل ما، وكأن الله تحت سلطان الحساد، عليه أن لايتصرف إلا بموافقتهم. واستشارتهم.

والحاسد كالعقرب يلدغ، ويميت، ولاينتفع من ضحيته، ولكن لمجرد متعة الأذى، وعندما يحسد الأقرع صاحب الجدايل، ويحلق له جديلته، لن يطول شعر الأقرع، وعندما يتحمس قصير القامة، ويقطع ساق طويل القامة، لن ترتفع قامته.

وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ

العلم كالهرم المقلوب، يبدأ من نقيطة صغيرة، ثم يتمدد بالإتجاهات الثلاثة التي لانهاية لحدودها، درجات غير متناهية نحو العلى، كعلو السماء مهما ارتفع الإنسان مازالت السماء فوقه، ويرى أنه لم يقطع منها شيئاً، ولو اجتمع علماء الجن والإنس، من أولهم إلى آخرهم، وبرهم وفاجرهم،ولو كانوا على علم رجل واحد، ما أخذوا من علم الله، إلا ما يأخذ المخيط من البحر. والله هو الذي يملّك العبد علمه، لأن الطفل يولد قطعة من اللحم.

العلم إعارة وليس تملك:

وهذه النقطة أو النقيطة من العلم التي لصقت بِسَمّ الخِياط وخرجت من بحر علم الله، هي إعارة وليست تملك، وعند الموت ترد المعارات إلى مصدرها، ويتساوى الطبيب والراعي عند الموت في الأمية. ويصبحان جسدين من اللحم وفي طريقهما للبلاء.

ونعود لإخوة يوسف، تنصلوا من أخوة السارق، واتهموا أخاهم الغائب.

قَالُواْ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ

وعندما أُخرج الصواعُ من وعاء شقيق يوسف، جاءتهم الصدمة المبرمجة ربانياً لتخرج ما في نفوسهم من الحقد الدفين، والحسد اللعين، وأن حقدهم مازال حياً رغم السنين. هذه هزة استباقية لهم، حتى إذا ما انكشف الستار عن يوسف، سيتوسلون، ويتنصلون، ويقولون له: كم...وكم ندمنا، وحزنا، وبكينا عليك؟، و كل واحد يتنصل منها، ويرميها على غيره، فقالوها بفم واحد:سارق كأخيه، وأشهدهم الله على أنفسهم.

قَالُواْ –جميعاً– إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ

وهنا استوت السيئة والحسنة عند يوسف، فدفع بالتي هي أحسن، والأحسن هنا ألا يرد عليهم، ويتجمل بالصبر.

إنها أخلاق النبوة تدفع بالتي هي أحسن، فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا وَاللّهُ أَعْلَمْ بِمَا تَصِفُونَ {يوسف/٧٧}

هم قدموا أنفسهم في أول لقاء مع عزيز مصر(يوسف)، أنهم من بيت النبوة، من بيت الكمال والجلال، ولتحرير أنفسهم مما هم فيه، قالوا: هذا السارق ضرب عليه عرق أخيه من قبل.

فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا

فأسرها يوسف في نفسه، وبقيت الإجابة مخنوقة في صدره لأمرين، الأول: خلق النبوة، والآخر: وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ ..ولم يحن الوقت للكشف عن اسمه، ولكنه قال لهم : أنتم الأكثر شراً، وقد تمكن الشر فيكم.

وتابع يوسف القول:

وَاللّهُ أَعْلَمْ بِمَا تَصِفُونَ

والله الأعلم بحال من تصفونه بالسرقة، بأنه ما سرق، وما كان له ذلك.

ينادونه بعزيز مصر وما يدرون أن هذا صاحبهم صاحب الجب، وأن هذا الذي سرق من قبل. فهم مرّة يقتلون، وأخرى يجرحون، وما آن لهم يرعوون !

قَالُواْ يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ {يوسف/٧٨}

ويتجلى من خلال قولهم: إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا.."

والسياق: إن لنا أباً..... ولكنهم قالوا: إن له أباً....

ومن كلامهم العلاقة الأسرية والأخوية مقطعة بينهم، فلاصلة ولا تواصل ودادي حقيقي، فتنصلوا منه، وكأنه صاحبهم بالسفر، وله أب كبير طاعن، فهو ليس بأخيهم، ولا الأب بأبيهم، والسياق: إن أبانا رجل كبير، أو هذا صغير العائلة وأبونا سيهلك عليه...

فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ

وكيف يترك يوسف الأعز، ويأخذ الأذل؟ وكيف يترك المن والسلوى، ويأخذ الثوم والبصل ؟

إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ

وهم يرونه من المحسنين، ولا يرون أنفسهم من المسيئين. لأنه أحسن إنزالهم في المرة الأولى، ومارهم كيلاً يسيراً، وردّ لهم نقودهم، حتى قالوا: مانبغي ! بعد هذا .

قَالَ مَعَاذَ اللهِ أَن نَّأْخُذَ إِلاَّ مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ إِنَّآ إِذًا لَّظَالِمُونَ {يوسف/٧٩}

لقد اعتذر لهم بأنه لايأخذ بريئاً مكان ظالم، قد ضبطوا متاعهم عنده.

وطوى القرآن خبر شقيق يوسف عند الصدمة هل كان على إطلاع، بتدبير يوسف؟ أم فوجئ وعرق جبينه، وكثر أنينه، عندما جروه للحجز، وبعد انجلاء العاصفة، أشرقت الشمس، وتنفس الصعداء ؟ وهذا هو المرجح، لأنه لو علم بالمكيدة بقي هادئاً ساكناً، فيكون نبه إخوته على طرف من الحبكة .

فَلَمَّا اسْتَيْأَسُواْ مِنْهُ خَلَصُواْ نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُواْ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ اللهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الأَرْضَ حَتَّىَ يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ {يوسف/٨٠}

فَلَمَّا اسْتَيْأَسُواْ مِنْه...

من الصدمة الأولى نفد صبرهم وحطمهم اليأس، وأحاط بهم القنوط، وبلغت القلوب الحناجر، بسبب قلة الإيمان، استيأسوا فوراً، وهذا توبيخ لهم، ويبرز الإيمان عند الشدائد، وهو الطاقة الخفية القوية

ومفردتا: اسْتَيْأَسُواْ ...و... إذا اسْتَيْأَس الرسل..." كلاهما في سورة يوسف، ولم تتكررا في القرآن، فإخوة يوسف استطرق عندهم اليأس حتى النخاع لضعف المقاومة الإيمانية.

ونفد الصبر كل الصبر، ولم تبق باليد حيلة، وأطبق الهم عليهم، ونزلوا في جب مظلم منقطع، فلا تمر عليهم سيارة، ولا يدلي وارد عليهم دلوه ... وتلك الأيام نداولها بين الناس.

خَلَصُواْ نَجِيًّا

خلصوا من بين الناس بعيداّ وتناجوا بالأمر، وقرروا الرحيل ، ولكن كبيرهم رفض الرحيل.

قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُواْ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ اللهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الأَرْضَ حَتَّىَ يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ

لقد قال كبيرهم –سناً أو رأياً أو عقلاً– وذكرهم بميثاقهم مع أبيهم، وذكرهم بتفريطهم بيوسف، وكان يوسف هو خيط المسبحة أو العِقد العائلي، فلما غاب انفرطت حبات العقد ونظامه وفرطوا به بلا سببٍ وجيه، وقرر أن يبقى في مصر، حتى يأذن له أبوه، ويتحلل من ميثاقه، أو يحكم الله له بالعودة، ولماذا الله خير الحاكمين ؟ لأنه يحيط بالقضية – صوتاً وصورةً– بدءاً مما يحاك في الصدور من الإثم حتى تتم الجريمة، بينما أي قاضٍ لايحيط إلا بالذي بين يديه.

ارْجِعُواْ إِلَى أَبِيكُمْ فَقُولُواْ يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلاَّ بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ {يوسف/٨١}

فقال كبيرهم ارجعوا إلى أهلكم ، وقولوا لأبيكم إن ابنك سرق، والسياق: ياأبانا إن أخانا سرق، بينما هو قال: ...أَبِيكُمْ –وليس أبيه– فَقُولُواْ يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ –وليس أخانا– سَرَقَ ومنعهم من ذلك التصدع العائلي، وهذه الشهادة مطابقة للواقع، وكنا قد تعهدنا بحفظه لك من الضياع أو أن يأكله الذئب، أما أن يسرق أو لايسرق، لايمكن الإحاطة بذلك.

وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيْرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ {يوسف/٨٢}

وأبناء يعقوب هذه المرة تختلف كلماتهم من حيث وثوقها وقوتها عن المرة الأولى في قصة القميص والذئب مع يوسف، واسأل أهل القرية التي تسامعت بقصة الصواع، وكذلك القافلة التي جئنا معها، ونقسم بالله أننا صادقون. ولكن هذه المرة هم صادقون، ولم يصب يعقوب الهدف، بينما في مسألة يوسف هم كذبوا، ويعقوب أصاب الهدف.

الخلط بين علم الغيب وخبر الغيب:

قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ {يوسف/٨٣}

قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ : زينت لكم الأمر وحببته إليكم لكي تفعلوا ما فعلتم.

ولم يصدقهم، واتهمهم بأنهم وراء إخفائه، ولو كان عنده خبر من الغيب ماكان هذا رده، كما في المرة الأولى كانت فراسته موفقة. يوم قال لهم: " قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ، والله المستعان على ما تصفون "

وتحرير المسألة بين علم الغيب وخبر الغيب:

هناك خلط بين علم الغيب، وخبر الغيب، وعلم الغيب هو لله حصراً، والإخبار بالغيب يكون بوساطة وسيط كالهاتف في زماننا، ينقل الأخبار الغيبية إلينا، وهذا يكون للأنبياء والصالحين وأهل الشفافية...عندما يأتي جبريل عليه السلام، ويبلغ النبي، بما وقع في مكان بعيد، أو بما سيقع مستقبلاً، أو مما يراه النبي مناماً، ويتحقق ذلك، هنا يوجد وسيط بالإخبار

عن المغيبات. ولاتتم عملية الإخبار بالغيب إلا بإذن من الله، كقوله تعالى: ولايحيطون بشيء من علمه إلا بماشاء...

وبعض الناس يرى رؤيا، فيخبر بها، فتتحقق رؤياه على الواقع بعد يوم أو يومين، هذا وأمثاله مخبرين بأمر غيبي، وليس بعالمين بالغيب.

بقي يعقوب ضامناً للنتيجة النهائية، ولو غاب ثلاثة أولاد من العائلة،وواثق أنهم سيجتمعون جميعاً وهم سالمون، ويسجدون ليوسف. لذلك يقول:

عَسَى اللّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ

قال: يَأْتِيَنِي بِهِمْ، لأنه – متيقن- هم بأيد أمينة وإن صاروا ثلاثة، وفي هذا الرجاء إشارة وبشارة خفيتان، سيجتمعون في يوم ما، ويكونون أحد عشر كوكباً.... ولكن متى؟ وكيف؟ وهذه الأسئلة هي التي ولدت الحزن، وبيضت العيون.

إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ

وختم رجاءه بهذا الثناء على الله بأنه عليم بحال الأسرة الممزقة، وحكيم قبل الحدث، وأثناء الحدث، وبعد الحدث، وكل الأحداث تمشي ضمن الخط المرسوم لها.

تشابه بين يعقوب وجده إبراهيم في الابتلاء الأسري:

وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ {يوسف/٨٤}

ولقد ابتلى الله يعقوب على كبر سنه بتمزيق العائلة، كما أبتلي جده إبراهيم على كبر سنه بتمزيق العائلة، والأسباب مختلفة والنتيجة واحدة كقول الشاعرابن نباتة السعدي:

ومن لم يمت بالسيف مات بغيره تعددت الأسباب والموت واحد

وابتلاء يعقوب بدأ عندما كانوا مجتمعين متحاسدين، ولما تفرقوا حملوه حمل الأبوة التي لاتميز بين الولد البار والولد العاق عند المصائب، فها هو يقول: " عسى الله أن يأتيني بهم جميعاً..."

والأحزان تجدد بعضها، والقبور الجديدة تجر القبور القديمة على بؤرة الشعور، وجاء في تفسير الرازي:

أن الحزن الجديد يقوي الحزن القديم الكامن، والقدح إذا وقع على القدح، كان أوجع. وقال متمم بن نويرة [٦٦]:

وقد لامني عند القبور على البكا.رفيقي لتذراف الدموع السوافك

فقال أتبكي كل قبر رأيته ... لقبر ثوى بين اللوى والدكادك

فقلت له إن الأسى يبعث الأسى ... فدعني فهذا كله قبر مالك

ولماذا استحضر يعقوب يوسف من دون أخويه؟

لأن عليه المعول في جمع الشمل مرة أخرى، و ينتظر متى تجتمع الكواكب والشمس والقمر؟ وهم بلا حسدٍ ولاحقدٍ، أي متحابين متآلفين ساجدين...

---

[٦٦] تفسير الرازي - (ج ٩ / ص ٩٥)

وضاقت على يعقوب الأرض بما رحبت، وتولى عنهم وقال ياأسفي على العائلة العقوقية، وعلى المبعدين منهم، وعلى يوسف كونه السبب الأول في هذا المشهد الحزين!

ومن كثرة البكاء غطت غشاوة رقيقة بيضاء عينيه، وضعفت الرؤية عنده، ولكنه من الداخل مشحون هماً ونكداً.

وبعض أفراد العائلة أشفق عليه، وأراد أن يهون عليه، قبل أن يتحطم نهائياً.

قَالُواْ تَاللهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ {يوسف/٨٥}

الحرض: يبري العافية وقال العرجي:

إني امرؤٌ لجّ بي حبّ فأحرضني....حتى بَليتُ،وحتى شفني السقم

وقالوا بفم واحد ليعقوب: لن تترك يوسف حتى يأتيك الحرض الذي يفسد الصحة والعقل، وما بعده إلا الموت، ولذلك أقسم أكثر من واحد من العائلة: تالله إنك إن لم تسلُه، وتنسّه، وماتفتأ تذكره، حتى تتحطم عافيتك أو تهلك.

قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ {يوسف/٨٦}

وشكوى يعقوب دعائية، وليست تذمرية، أشكو إلى الله، غير أشكو الله، وصحح لهم ظنهم المغلوط، في ترديد اسم يوسف، بمعنى: يارب يوسف...! اجمع الشمل، وعجل بالفرج، وأنا مؤمن بذلك، ولكن متى؟ وكيف؟ وأنا أعلم رؤيا يوسف، وأمرته بالتكتم عليها، وأنتم لاتعلمون.

ويأمر أبناءه، أن يذهبوا إلى مصر، وهناك يتحسسوا بهدوء من يوسف وأخيه، ويتضمن بشارة ضمنية، من خلال هذه الإماءة، أن يوسف بجوار أخيه.

فكيف جمع بين يُوسُفَ وَأَخِيهِ وهما غائبان متباعدان في الزمان والمكان؟

إنها شفافية الإيمان.

يَا بَنِيَّ اذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلاَ تَيْأَسُواْ مِن رَّوْحِ اللّهِ إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ {يوسف/٨٧}

يعقوب يعالج أولاده من اليأس والقنوط، ويحذرهم خطورة هذا المرض الذي يصاحب الكافرين، وإذا وجد بمؤمن مثل هذا المرض، يكون لانخفاض الرصيد الإيماني.

ولابد من التفريق بين التجسس والتحسس، فالمتجسس يبحث عن العورات لإلحاق الأذى بالناس، والمتحسس يبحث عن ضالة دقيقة،كالذي يبحث عن دينار له سقط بالماء أو دفن بالتراب.

وَلاَ تَيْأَسُواْ مِن رَّوْحِ اللّهِ

ولاتيأسوا من فرج الله ورحمته، إن كنتم مؤمنين.

وطوى القرآن تفاصيل عودتهم ومسيرهم إلى مصر، وماجرى بينهم وبين أخيهم الذي قال لن أبرح الأرض... وما عنده من أنباءٍ حول أخيهم صاحب الصواع.

وجاء الخبر فيه طي، من بعد أمْرِ يعقوب لهم بالتحسس، قال: فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيْهِ ...على يوسف، وهذا الخبن في القصة، من أجل تشويق القارئ وإبعاد

السآمة عنه. ونقله سريعاً من حدثٍ إلى حدثٍ، ويترك للقارئ سبك الأحداث في نفسه، ولكل رؤيةٍ خاصةٍ.

فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيْهِ قَالُواْ يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ إِنَّ اللّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ {يوسف/٨٨}

فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيْهِ قَالُواْ يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ

العزيز الذي أعزه الله، ذكروه بأهلهم وأنهم من بيت النبوة، وأنت أيها العزيز لاترضى أن يساء حال بيت النبوة. وحال أهليهم وبعد الاستعطاف، جاء الاستلطاف.وأبناء الأنبياء والصالحين يتشفعون بذكر آبائهم ويتلطفون أصحاب النفوذ.

وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ

والإزجاء الدفع والسوق، كما في قوله تعالى: " ربكم الذي يزجي لكم الفلك في البحر..."[٦٧] وقوله: " ألم تر أن الله يزجي سحاباً، ثم يؤلف بينه، ثم يجعله ركاماً..."[٦٨]

يتلطفونه ببضاعتهم الضعيفة والتي لا تمشي بنفسها وتحتاج إلى دفعة حنان وتلطف منه.

فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ

ويرجونه أن يأخذوا كيلاً كاملاً، رغم النقص الذي في بضاعتهم. ويقولون له اعتبر هذه الزيادة صدقةً علينا

---

[٦٧] ١٧|٦٦.

[٦٨] ٢٤|٤٣.

وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ إِنَّ اللّهَ يَجْزِي المتصدقين

ولما نفد صبرهم، بدأت الآهات والشكايات، وهنا ثلاث شكايات، شكاية الضر بكل ما تحمل من الضر، وشكاية البضاعة الرديئة على العوز والحاجة، ثم شكاية طلب الصدقة.

وهنا طوى القرآن أحداثاً مهمة حول يوسف، هل ماسمعه يوسف هو الذي هزه، وفقد السيطرة على عصبه ولحمه ودمه، وكشف عن نفسه؟ أم أن الأمور مرهونة بأوقاتها وفي مدرسة النبوة:

" ...**لكل أجل كتاب"يوسف يكشف عن نفسه:**

قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ {يوسف/٨٩}

سؤلان يبرزان بقوة:

- ماذا فعلوا بأخ ليوسف، لانعرف عنه شيئاً، وكم مرة عرضوه للخطر والموت، حتى يستوجب من يوسف، أن يجعل ما وقع لأخيه بنفس الخطورة التي وقعت ليوسف ؟
- ولماذا طوى القرآن عنا شنيع أفعالهم مع أخيهم الأصغر ؟

رحمةً، بي، وبكَ، أيها القارئ، قد نحمل عليهم في صدورنا، ونقول كلاماً غير موزون من شدة العاطفة المؤثرة التي يديرها الأسلوب القرآني، ونصبح متحزبين لفريق على حساب الآخر، ونخرج عن مهمتنا، ودورنا قراء للعظة والعبرة، وليس للمحاكمة والجلد، وهم الآن

في مقعد صدق عند مليك مقتدر، كما نحسب، والله حسيبهم، وأنا وأنت نقرعهم آثمين !

قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ

بدأ باستفهام تقريعي تقريري، هل علمتم الذي فعلتموه بيوسف، أم أنكم ما زلتم تجهلون خطورة هذا العمل في الدنيا والآخرة؟

ولماذا ضم أخاه إليه في المأساة؟ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ؟ والقرآن لم يكشف لنا الغطاء عما فعلوه بأخيه من بعده، الذي ضمه إليه، وعزاه وصبره، بقوله:" إني أنا أخوك، فلا تبتئس، بما كانوا يعملون"٦٩.

والآن كُشف الغطاء في الوقت المعلوم الذي حدده القدر منذ الأزل.

قَالُواْ أَإِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَاْ يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيِصْبِرْ فَإِنَّ اللّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ {يوسف/٩٠}

يريدون أن يتأكدوا،باستفهام انكاري تشككي، فقالوا: أإنك لأنت...حشدوا عدة حروف للتوكيد، ثم وقفوا عند ضمير الخطاب- أنت- أنت صاحب الجب، أنت عزيز مصر، أنت الذي دفناك في قاع البئر، وها أنت في قمة المجد...أنت، وجوابه لهم: أنا هو،هو، وهذا أخي، وكأن أخاه وراء حجاب ، فجيء به.

يوسف يعدد منن الله عليه وعلى أخيه، ولكن بضمير الجمع (علينا) إنها عظمة النعمة، ويقول: فرفعنا ونفعنا، بتقوانا لله، وحسن صبرنا عليكم، وعلى مقدرات الله، فإن الله لايضيع أجر أحد، والذين يحسنون التقوى في كل ما أُمر به، ويصبرون عن كل ما نُهى عنه، فلهم أجرهم الخاص وهم الثلة النادرة.

قَالُواْ تَاللّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ {يوسف/٩١}

قالوا، وأقسموا: آثرك الله بحمل راية بيت النبوة، واجتباك من بيننا، وكنا مخطئين لما واجهنا قدر الله فيك، وإن الله بالغ أمره، ولكن أكثر الناس لايعلمون، لأن الحسد أعمى البصر والبصيرة، وقصير القامة لو قطع سيقان الطوال، لن يطول قِيْد أنملة، ولو أن الأقرع حلق كل الجدايل من رؤوس أصحابها، لن تنبت له شعرةٌ واحدةٌ.

وجاء رد يوسف هادئاً رخياً، وهذا منهج النبوة، غير متناسب مع حجم الذنب، لأن الله هداهم إلى الطيب من القول، ولما تستوي الكلمة الطيبة والخبيثة، يدفع الأنبياء والصالحون بالأطيب، لأن الكلمة الخبيثة أصلاً غير موجودة على ألسنتهم، ولا في صدورهم، وهذا رسول الله في يوم فتح مكة، كان رده مفاجئاً لمن أتعبوه، اذهبوا: فأنتم الطلقاء"[٦٩]. وسمى النبي هذا اليوم – يوم فتح مكة – " يوم المرحمة"[٧٠]، وكان أعداؤه يتوقعونه يوم الملحمة الدامي.

قَالَ لاَ تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ {يوسف/٩٢}

و" اليَوْمَ" عند يوسف هو يوم المرحمة، لقد عفا، وغفر، وترحم، وهذا يوم الصدمة الكبرى لإخوة يوسف، ففي اليوم العصيب مرحمة ومكرمة، وغداً وما بعده إلى أي حدّ سيصل إليه كرم الأنبياء وصفحهم، وهذا يوم نجاح

---

٦٩ البيهقي في السنن الكبرى، حديث رقم (١٨٧٣٩)

٧٠ أسد الغاب، ج١ | ٤٣٤)

الصبر ليوسف، فقال لهم: لن نفسد عليكم هذا اليوم، وهو يوم التحول في حياة العائلة، لأن أصل التثريب اللوم والعتب والتبكيت، هذه أخلاق الله على الأرض في سيرة الأنبياء والصالحين. وينتقل النص إلى دور الإعجازات المتوازية بين يوسف ويعقوب.

القميص الثالث إعجاز نبوي:

وجاء دور القميص الثالث (المشفى الجوي) كمعجزة خارج طور العقل، ولايمكن أن تعلل المعجزات، وتخضع للبحث العقلي، وفي المعجزات رسالة ضمنية تربوية ترشيدية دعوية، تقول: في الكون إله.. !

أتؤمنون..؟

فقبل المعجزة ينظر الناس إلى الأرض، وبعد المعجزة ينظرون إلى السماء. وإن لم يكن للمعجزة إلا هذا لكفى.

اذْهَبُواْ بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ {يوسف/٩٣}

ولماذا حدد القميص (هذا) دون غيره من القمصان أو الأكسية ؟

وكيف يجزم بأنه سيأتي بصيراً ؟ ولو لم يأتِ، لمانع من الموانع؟ ولو لم يبصر، ما موقفه ؟ إنه الإيمان المطلق.

سبحان مغير الأحوال، هم ذهبوا بقميصه الأول محملاً بالدم الكذب، والآن يعطيهم قميصه هذا محملاً بالشفاء، ففي القميص الأولأكثر من عقوق: عقوق الأبوة، وعقوق النبوة، وعقوق الأخوة، وعقوق النبوة مضاعف، لقد عقوا نبيين: عقوا يعقوب وعقوا يوسف.

فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا

وقد حدد القميص ، وحدد المعجزة له، حتى لايبدل القميص بآخر، ويدّعون النبوة بعدها، وأمرهم أن يلقوه إلقاءً، فعند الملامسة تشتعل أنوار البصر والبصيرة ، وما فعل هذا إلا بوحي، والوحي ضامن، كما فعل رسول الله في معركة (بدر) قبل يومٍ مشى بأرض المعركة وقال: هذا مصرع فلان، وهذا مصرع فلان"[٧١] وعدد رجالاً من زعماء المشركين، وفي نهاية المعركة قتلوا جميعاً وفي ذات المواضع تحديداً. ومن أراد التوسع ينظر كتب السيرة.

وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلاَ أَن تُفَنِّدُونِ {يوسف/٩٤}

ولما فصلت العير خارج الغلاف الجوي المصري، ظهرت معجزة يعقوب قبل أن تصل معجزة يوسف،حتى لايتوهم بعضهم بأن يوسف أمكن من أبيه في النبوة وأحظى بالفتح، ومادام المؤمن البسيط ينظر بنور الله، فكيف بالأنبياء والرسل ؟ هم نور الله في الأرض.

ولماذا لما فصلت العير، شم يعقوب ريح يوسف؟ المراد من ــ فصلت ــ دقة التوقيت في أحكام الله، كما يفطر الصائم بعد مدفع الإفطار، والأمور مرهونة بأوقاتها، فلا يعقوب ولايوسف يستطيعان التقديم والتأخير لوقت حدده الله .

إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ

وهل ريح يوسف التي هبت من القميص أم من يوسف مباشرة ومهمة القميص الملامسة ؟. أم هي ريح ربانية سُميت بريح يوسف؟

---

[٧١] مسند البزار، حديث رقم (٢٢٢)

ولله نفحات على المؤمنين، لاتظهر إلا نادراً، ولأناس أختصهم الله برحمته، وميزتهم شفافية أرواحهم التي تخلصت من الثقلة الطينية، وهي امتداد لنفخة النور التي نفخت في آدم عليه السلام: " ونفخت فيه من روحي " فالله هو الذي يُري العين ما لاتره العيون الأخريات، ولو كان بوسعها أن ترى لرأت دائماً، كالذين يرون الأنبياء والرسل والصالحين بالمنام، فإن فتح الله عليهم رأوا، وإلا فلا.

وهذا صحابي في (أحد) ينادي:" إني لأجد ريح الجنة دون أحد"[٧٢] والحمد لله الذي أوجد بأمة محمد من يشم على بعد الآخرة من بعد الدنيا، يشم ريح الجنة، وأما يعقوب شمّ من الدنيا إلى الدنيا، ولما جاء خبر الأسود العنسي إلى عمر بن الخطاب ، بأنه ألقى مسلماً بالنار، فلم تحرقه، ولم تؤذه، فقال عمر: الحمد لله الذي لم يمتني، حتى أراني في أمة محمد صلى الله عليه وسلم، من فعل به، كما فعل بإبراهيم الخليل عليه السلام"[٧٣]. وما أكثر اليعقوبيين والإبراهيميين في هذه الأمة !

قَالُواْ تَاللّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلاَلِكَ الْقَدِيمِ {يوسف/٩٥}

فقال ليعقوب ممن حوله من النساء والخدم: آمنا بالله !! ما زلت تبحث عن ضالتك، التي ذهبت مع الريح، انساها، تستريح.

فَلَمَّا أَن جَاء الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيَ أَعْلَمُ مِنَ اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ {يوسف/٩٦}

---

٧٢ مسند أحمد، حديث رقم (١٣٦٨٣)

٧٣ انظر القصة في أسد الغابة: ١ | ١٢٤٥.

جاء البشير يحمل القميص الثالث وما هو إلا تغطية للحدث والأخذ بالأسباب حتى لايتواكل الناس، وينتظرون المعجزات والكرامات، فلما ألقاه على وجه يعقوب عاد مبصراً ، وبدأ يعقوب يوجه أنظار القوم حوله، بأن عناية الله ترشده، وتلهمه، وتبشره، ولقد علمه الله من لدنه علماً. وهي من خصوصيات الله لبعض خلقه.

والسؤال: ما السر بهذا القميص، ومكوناته لاتتعدى الصوف، أو الوبر، أو الشعر،أو...؟

قطرة العين القرآنية:[٧٤]

وبعد آلاف السنين كشف القدر عن شيء خفي في قميص يوسف، وملخص القول:"... يقول د. عبد الباسط محمد، كان يقرأ الآية-٩٦ من سورة يوسف، فقال في نفسه:

ليس في القميص شيء من يوسف سوى الرائحة وبقية التعرّق العالقة، وهل في العرق ما يشفي المياه البيضاء في العين، أي يزيل القتامة والتي تسمى (الكاتركت)، وتتحول القتامة إلى أصلها وشفافيتها، وبدأت الخطوات تجر بعضها بعضاً، مع التدخلات الفيزيائية والكيميائية للعرق، وكانت النتائج عالية، وأخيراً:

صنع قطرة عينية أختبرت على عينة فسيولوجية مكونة بالحاسب الآلي بتكلفة ربع مليون دولار في نصف ساعة، فنفذ الضوء إليها بنسبة٩٩% خلال٣٠ دقيقة.

---

[٧٤] كما جاء في مجلة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة، الرابطة، مكة المكرمة، العدد الأول، صفر١٤١٦هـ، يوليو١٩٩٥م.

ثم جرب القطرة بعدها على ٢٥٠ متطوعاً، وشفي أكثر من ٩٠% والباقي تأخروا لأسباب مرضية أخرى..

وسجل هذا الاختراع لدى الجهات المختصة، وشكلت له لجنة اختبارية، وقد أجيز من براءة الاختراع الأوربية عام١٩٩١م، ومن براءة الاختراع الأمريكية عام١٩٩٣م.

وطلب أن يسجل على العبوة المصنعة: قطرة العين القرآنية..."أهـ بتصرف.

ونقول له:

هيهات أن تخرج هذه القطرة، وبهذا الاسم !!

ستكون القطرة سبباً لإسلام معظم العاملين بحقل الصيدلة ومصانع الأدوية، ومرضى العيون، ،و....

فهيهات...هيهات.

وبعد ربع قرن – وللآن- لم تخرج بهذا الاسم...!

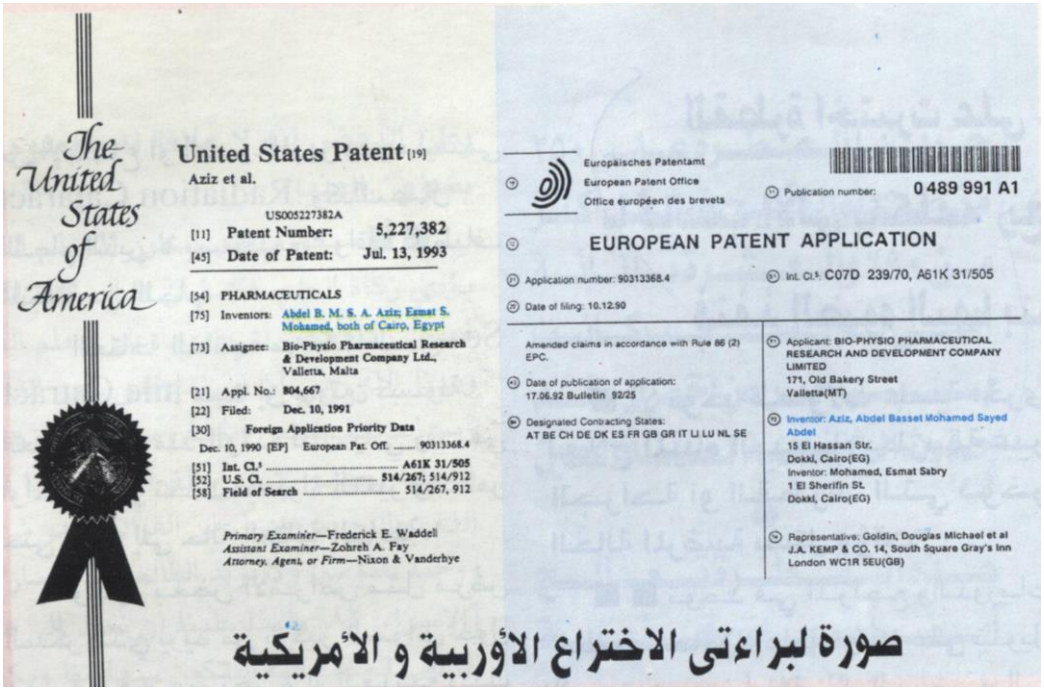
The United States of America

United States Patent [19]
Aziz et al.

US005227382A
[11] Patent Number: 5,227,382
[45] Date of Patent: Jul. 13, 1993

[54] PHARMACEUTICALS
[75] Inventors: Abdel B. M. S. A. Aziz; Esmat S. Mohamed, both of Cairo, Egypt
[73] Assignee: Bio-Physio Pharmaceutical Research & Development Company Ltd., Valletta, Malta
[21] Appl. No.: 804,667
[22] Filed: Dec. 10, 1991
[30] Foreign Application Priority Data
Dec. 10, 1990 [EP] European Pat. Off. 90313368.4
[51] Int. Cl.[5] A61K 31/505
[52] U.S. Cl. 514/267; 514/912
[58] Field of Search 514/267, 912

Primary Examiner—Frederick E. Waddell
Assistant Examiner—Zohreh A. Fay
Attorney, Agent, or Firm—Nixon & Vanderhye

Europäisches Patentamt
European Patent Office
Office européen des brevets

Publication number: 0 489 991 A1

EUROPEAN PATENT APPLICATION

Application number: 90313368.4
Int. Cl.[5]: C07D 239/70, A61K 31/505
Date of filing: 10.12.90

Amended claims in accordance with Rule 86 (2) EPC.
Date of publication of application: 17.06.92 Bulletin 92/25
Designated Contracting States: AT BE CH DE DK ES FR GB GR IT LI LU NL SE

Applicant: BIO-PHYSIO PHARMACEUTICAL RESEARCH AND DEVELOPMENT COMPANY LIMITED
171, Old Bakery Street
Valletta(MT)
Inventor: Aziz, Abdel Basset Mohamed Sayed Abdel
15 El Hassan Str.
Dokki, Cairo(EG)
Inventor: Mohamed, Esmat Sabry
1 El Sherifin St.
Dokki, Cairo(EG)

Representative: Goldin, Douglas Michael et al
J.A. KEMP & CO. 14, South Square Gray's Inn
London WC1R 5EU(GB)

صورة لبراءتى الاختراع الأوربية و الأمريكية

قَالُواْ يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ {يوسف/٩٧}

والسياق: ياأبانا سامحنا، وأعف عنا، ثم استغفرلنا الله....

ولماذا عدلوا عن الطلب من الأب؟ إما حياءً منه، والذنوب تقصِّر الألسن، وإما مازالت صدورهم محصورةً عليه، ولكنهم قالوا بفمٍ واحدٍ: يا أبانا نسألك أن تستغفر الله لنا، لأن ذنوبنا التي مزقت العائلة، ولم تكن أخطاءً عابرة، بل مقصودة. وأخروا الاعتراف بالذنب، وقدموا الرجاء... ولم تكن ذنوبهم ذنوب أطفال يلعبون بعلبة كبريت.

كلما كان الإعتراف واضحاً وصريحاً ولم يخبأ منه شيئ، كان المعترف أقرب إلى التوبة النصوح.

يعقوب أخّر الاستغفار، ربما ليستأذن ربه:

قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيَ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ {يوسف/٩٨}

ولم يعبر يعقوب عما في نفسه عليهم، وعلى المسألة، ولكن أجابهم حسب طلبهم، ولماذا وعدهم أبوهم مستقبلاً بالاستغفار، ولم يقم به حالاً، كما فعل يوسف من قبل معهم، ربما لأن يوسف كان مأذوناً من ربه بذلك ؟

ولعل يعقوب ينتظر الإذن من الله، بأن يستغفر أو لايستغفر، والله لم يأذن للنبي بالاستغفار للمنافقين، كما في قوله تعالى: سواء عليهم أستغفرت لهم

أم لم تستغفرلهم، لن يغفر الله لهم.."[٧٥] وفي سورة التوبة تعالى الغضب الإلهي عليهم سبعين ضعفاً، فقال للنبي لو استغفرت لهم سبعين مرة، فلن يغفر الله لهم: " استغفر لهم أو لاتستغفر لهم، إن تستغفر لهم سبعين مرةً، فلن يغفر الله لهم "[٧٦] والأعداد التي ترد في القرآن، الغالب يراد بها التكثير، وهذه الخاصية في العربية، مازلت موجودة في لغة الشارع ببلاد الشام وغيرها، ففي مجال التحايا والسلامات والتخابر الهاتفي ، يقول أحدهم للآخر: (ميت أهلين وسهلين، وميت مرحباً) أي (مائة أهلاً وسهلاً، ومائة مرحباً). إنها لغة القوم. ياقوم !

وربما أجل يعقوب الدعاء حتى يتم اللقاء بيوسف ويطمئن قلبه، ولكن يعقوب ربط قلوبهم بالله الذي يغفر الذنب، ويكرم المذنب ويرحمه.

أو أنّ يعقوب كان في حالة الفطرة البشرية، التي لن تنسى الجرح العميق بسرعة، وتخرج كلمة العفو والمسامحة بمرارة منه، والجرح يسيل دماً. وينتقل النص إلى يوم العيد السعيد، عيد الفرحة الكبرى ولَمَّ الشمل للأسرة اليعقوبية، وماكان يظن أحد أنهم سيجتمعون، ولسان حال من يعرفهم من الداخل والجوار: كلما ينظر إليهم يقول: أنى يحيي الله هذه الأسرة بعد تفرقها !!

فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُواْ مِصْرَ إِن شَاء اللّهُ آمِنِينَ {يوسف/٩٩}

---

[٧٥] المنافقون | ٦.

[٧٦] ٩ | ٨٠.

وطوى القرآن تفاصيل رحيل العائلة(آل يعقوب) من فلسطين إلى مصر، وانتقل فورا إلى القول: فلما دخلوا على يوسف....والسؤال: هل دخولهم على يوسف كان مفاجأة، لأنه لايدري متى يصلون ؟ أم خرج لاستقبالهم؟ ولكن الآية تعطي صبغة المفاجأة، وانفرد بأبويه، كما انفرد بأخيه من قبل، كي يداوي جراحهم، وينزع ما في صدورهم من غلٍ، و تكون أسرة متآلفة، وتظهر فيه نعمة النبوة من تسامح وتصافح، ويكون لهم أسوة وقدوة، تستحق السجود.

وكما كان يوسف يملك شطر الجمال، كان يملك شطر البرّ كله، والتواضع كله، والصفح كله، فهو رائد بين الأنبياء والبشرية في برّ أبويه، وبرّ إخوته، و رفع أبويه على العرش ، ثم جلس بين يديهما، أو رفعهما رفعاً معنوياً، فإن كان هو عزيز مصر، فجعل أبويه فوق العزيز، يأمران، ولا يُؤمران، يطلبان ولايُطلب منهما شيء.

وماذا نقول للذين استلموا منصباً ما، بعدها تنكروا لآبائهم ومعارفهم، إن كانت هيأتهم هيئة الضعفاء....وكان الأبناء مدراء- لكن في مصانع تحويل المخلفات العضوية إلى...- يتبرمون بأهلهم ؟.

يوسف يملك شطر الجمال، والبر، والتواضع:

وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بَي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاء بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَن نَّزغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاء إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ {يوسف/١٠٠}

وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ

لقد رفع أبويه وغلب الذكورية، وهما عزيزان فوق العزيز، وملكان فوق الملك، وقد جمع الله للعائلة العز والسرور بنجاح نبيين منها: يعقوب نبي، ويوسف نبي، نجحا في الإبتلاء، كما نجح أبواهما من قبل إبراهيم وإسماعيل في مسألة الذبح،ونجح يعقوب وولده في صلة رحم مقطعة، بل تجاوزت التقطيع ووصلت حدّ الفرم والطحن، وإنقاذ الإخوة الأشقياء من عذاب الله، ودفعهم بعيداً عن النار، ورفعهم إلى مستوى التوبة والأوبة، وكانوا أقرب إلى الهلاك في الدنيا والآخرة. وكل قصص القرآن، انتهت بهلاك الظالمين ونجاة المظلومين، إلا في قصة يوسف. انتهت بفوز المظلومين والذين كانوا قد ظلموهم.

وَخَرُّواْ لَهُ سُجَّدًا

وقد خروا راكعين أو ساجدين، أي سقطوا ، ووصف الله داود: " وخرّ راكعاً وأناب"[٧٧] وخروا له حصراً، لا لغيره، وتحققت رؤيا يوسف، والسؤال: هل سجودهم كسجودنا؟ ومباح في شرعهم؟ أو سجود معنوي ؟ كالتسليم له، بأنه يستحق حمل راية آل إبراهيم النبوية من دون العائلة.

وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا

وقد أنعم الله عليَّ من دون خلقه، منذ طفولتي، وأراني مستقبلاً عزيزاً، يوم أسجد لي آل إبراهيم، وتمر الأيام وقد وفَّى الله بوعده وببشارته لي بالعلم والحلم وميراث النبوة، وزاد الله فوق البشارة، فأعطاني ملك مصر، وماكان ملك مصر في الرؤيا واضحاً.

---

[٧٧] ص| ٨٠.

وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ

وقد أحسن بي، أي بلغ الإحسان واللطف غايته مع يوسف في كل مراحل حياته، وتتجلى جمالية يوسف في انتقاء كلماته النيرة، والأنبياء والصالحون صناع أمن وسلام، أينما يوجدوا، يطفئوا نار الفتن، والذي أخرج يوسف من السجن هو الله، بسبب حاجة الملك إليه، وإلا قعد به إلى يوم الحشر، لغياب العدل وغياب السجلات التي تنظم الدخول والخروج، فالداخل مفقود، والخارج مولود. لذلك أول حمد له لله، حمد الله الذي أخرجه من السجن.

يوسف الذي يمثل رمز المصلحين المظلومين، يوسف مصلح، وليس بمفسد، يوسف الذي لايزني، وينهى عن الزنى، والذي لايخون وينهى الناس عن الخيانة، وهل لمثل هذا أنشئ السجن؟ وهذا لايكون إلا إذا طاشت موازين العدل وقوانين الفطرة.

والذي أوجد المستشفيات في الأرض هم المرضى، وليس الأصحاء، والذي أوجد الأدوية، هي العلل، وليست العافية، والذي أوجد السجون في الأرض هم المفسدون. ولو دخل الأصحاء المشافي، وبقي المرضى في الشوارع، ولو دخل الصالحون والمصلحون السجن، وبقي المفسدون يعيثون في الأرض، ماذا سيقول المؤرخون عن هذه الفترة؟

يوسف طوى كل ما يعكر الصفو العائلي الذي لم يلملم جراحه بعد، والسياق: الحمد لله الذي أنقذني من الجب، وأحسن بي في سوق البيع والشراء، حتى وصلت عزيز مصر، وأحسن بي إذ لم أخن الذي أكرمني وأحسن مثواي، وأحسن بي بالعفاف يوم قالت لي:

هيت لك ! فقلت لها:معاذ الله !

وماترشد إليه الآية:

- لايريد إحراج إخوته بذكر ما صنعوا معه.
- وماذكر عن فتنة النسوة شيئاً، لايريد أن يعكر المجلس الذي ضم نبيين — يعقوب ويوسف- وأحدهما عزيز مصر، ولايوجد عاقل، يفسد العسل بالخل، والورد بالثوم والبصل.

وَجَاء بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ

ومن نعم الله أن جاء بكم من شظف العيش، إلى لين الحياة، ومن موطن الجهل إلى ديار العلم والحضارة، فيجمع الله لكم مع النبوة العلم والحكمة وقيادة الناس. وستكونون قدوةً، والناس تبعاً لكم .

مِن بَعْدِ أَن نَّزغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي

والنزغ التحول المفاجئ، ولكن نحو الشر، ينزغ الراكب الدابة حين تكسل بحديدة، فتنفر مسرعة إلى حد الجموح، ومعطيات الصورة الفنية، أن يوسف جعل نفسه طرفاً في الفتنة فقال: بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي..، هذه من الحكمة، في موطن الحكمة. والسياق: بعد أن نزغ الشيطان في إخوتي، وعدّاهم عليّ.

ومن أجل تهدئة الأجواء، فأسند القضية كلها للشيطان، كمبرر نفسي للأخوة، وهذا درس لمن يعالج مشاكل الأسر المفككة وللأخوة المهزوزة التي تتحاسب على النقير والقطمير، وتتعاتب على القيل والقال، والإصلاح الأسري يحتاج إلى تنازل من صاحب الحق، والتغاضي عن الصغيرة والكبيرة، وما من عائلة إلا بها مفسد ومصلح، كريم وبخيل، جبان وشجاع، فإن أخذ

المفسد دوره، فأين دور المصلح الغائب؟ فأين دور خريجي المدرسة اليوسفية ؟ يرقعون ما تمزق، ويصلحون ما أُفسد. والواصل غير المكافئ .

وهذا مما ترشد إليه السورة، في إعادة بناء الأسرة الممزقة.

إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاء إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ

ويوسف يوجه أنظارنا نحو اللطف الإلهي من أجل تربيتنا وتعليمنا، كيف نتعامل مع الحدث بالرضا والتسليم، ونؤمن بأن الله لاينتفع من تعذيب الخلق بإبتلائهم، ولكن لحكم يجهلونها، وفيها خير لهم؟ وكيف نستثمر الحدث بعد انتهائه، من خلال استخلاص الحكمة من ذلك ؟

ويوسف قدم النموذج الكامل للتسليم والرضا لله أثناء الحدث الذي استمر نصف قرنٍ تقريباً، ومن المستحيل إدراك اللطف الإلهي على سبيل الإحاطة، وينفذ الله ما يريد بدقة وسكون، لأن علمه شامل وإحاطته كاملة، فلايعزب عنه شيء، فاستخرج يوسف من بين البدو ومن البئر ومن فتنة النساء ومن السجن ومن ابتلاء التخزين والتقنين ومن امتحان الملك والعظمة، حتى ولو كان يوسف في صخرة أو في السماء أو في الأرض، ربّاه، ونماه، وجاء به الله سالماً غانماً، قوله تعالى:" يابني إنها إن تك مثقال حبة من خردل، فتكن في صخرةٍ أو في السموات أوفي الأرض يأت بها الله، إن الله لطيف خبير "[٧٨]

عليم بحال يوسف في تنقلاته، وحكيم في تسلسل الأحداث، التي كانت تدفع بيوسف إلى الغاية المرسومة.

---

٧٨ لقمان | ١٦.

رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنُيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ {يوسف/١٠١}

يوسف يستعجل لقاء ربه:

يحمد ربه الذي رباه وتولاه وآتاه الملك، وعلمه، وأي أستاذ أو جامعة تستطيع أن ترقى بطالب واحد إلى ما وصل إليه يوسف، من طفل بدوي إلى ملك مصري، ويحمده على توليه ونصرته له. ويدعوه ويرجوه أن يحفظه حتى يموت مسلماً، وأن يجعله بمنزلة الصالحين في الدار الآخرة. ويستعجل الرحيل إلى الجنة، إلى ماهو أفضل من إمارة مصر. وربما لم تبقَ به عافية من كثرة التعب، وبغياب العافية، غابت لذة المأكل والمشرب والمنصب..

لعل سائلاً يسأل، لماذا لايريد يوسف الاستبقاء في الدنيا طويلاً، بعد هذا الامتحان الطويل، حتى يستروح قليلاً، ويحلب هذا المنصب حلباً، منصب عزيز مصر؟ وجبلت النفس على حب المناصب الرفيعة، والبقاء فوقها طويلاً، إلا نفس يوسف وأمثاله، لماذا ؟

لأن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام في الدنيا، كأنهم يقفون على الأعراف بين الدنيا والآخرة، ويرون ما أعد الله لهم في الآخرة ما لايوصف، لذلك يستعجلون الوصول إليه، ولايكون الوصول إليه إلا بالموت .

والموت عند العامة فراق طويل، وعند الكافرين لا لقاء بعده، وعند الخاصة من المؤمنين نعمة كبرى لأنه السبب الوحيد الذي يوصل العبد إلى لقاء ربه !

وكم يفتخر الناس عندما يقابل أحد أفراد عائلتهم السلطان أو الملك ؟ وكيف بمن يقابل ربه؟ وبعضهم لجهلهم يفقد صوابه بموت ذويه، لأنهم لايعلمون أنه قابل ملك الملوك.

عظمة القصص القرآني أنه جاء موثقاً من جهة، ومن جهة أخرى هناك آلاف القصص ماتت واندثرت منذ آلاف السنين طواها الزمن، والآن ينشر القرآن بعضها،وينفض عنها غبار الزمن، ويقدمها حية طرية، ويركز على مواطن الاعتبار والاتعاظ، وقصص القرآن فيها من أخبار الأنبياء وأخلاق الأمم مع أنبيائهم، وهذه المعلومات كانت وقفاً على أهل الكتاب، وما أصاب كتبهم من تحريف وتخليط، فجاء القرآن ليرفع المؤمنين الأميين إلى مستوى علماء أهل الكتاب، ويصبح القرآن المرجع الموثق لتلك الأحداث الغابرة.

ويمنّ الله – ولله الفضل والمنّ – على نبيه وعلينا، بهذا الوحي، وبأنباء الغيب.

الفصل الثالث

ما ترشد إليه السورة من عظات وعبر

من الآية:١٠٢ إلى الآية:١١١.

ذَلِكَ مِنْ أَنبَاء الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُواْ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ {يوسف/١٠٢}

لو يعلم المؤمنون حجم النعم التي جاءت مع الأنباء الغيبية القرآنية، وتنوعت كثيراً، إن الله أكرمنا وبسط لنا أحداث الكون، من يوم كانت السموات والأرض رتقاً، ففتقناهما، وإلى يوم يطوي السماء كطي السجل للكتب، هذا تكريمٌ قبل أن يكون تعليماً، فإن الدول لاتطلع بعض مواطنيها، أوكل زائر لها على أسرارها، إلا إن كان له شأن عظيم.

ومفردة"الأنباء" مهمة جداً في القرآن لاتأتي إلا في سياق الأمور المفصلية والهامة التي تتغير بها مسيرة الحياة، يميناً شمالاً صعوداً هبوطاً، والأنباء غير الأخبار، الأخبار هي لأحداث وقعت، ولم يتغير بها شيء، كخبر قطّاع طرق كان عددهم ثلاثمائة، وقد خرجوا على قافلة بها ألف فارس، وانتهبوها، ومع الزمن ماتوا، ومات ما سلبوه، ولم يتغير شيء في الكون، بينما غزوة (بدر) نفس العدد، هنا وهناك، ولكن النتائج لاتوصف، لأن بعدها انداح الإسلام في الأرض، ولم يكن في الأرض إلا ثلاثة مساجد، والآن حوالي نصف مليون مسجد تقريباً، ومعها الفتوحات الكبرى، والعلوم المختلفة، كلها ببركة موقعة بدر، مثل هذا الحدث يسمى نبأً.

ومثال آخر: أول جريمة في الأرض وبلا سبب قتل أخاه، سميت نبأً: واتل عليهم نبأ ابني آدم، إذ قربا قرباناً، فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر، قال: لأقتلنك...." أول جريمة في الأرض، ومازال المجرمون الفرنجة الذين ينتسبون لهذا المجرم قاتل أخيه يقتلون الملايين بلا ذنب، ولاسبب، من أجل البترول والمعادن، وإذا الشعوب المؤودة سئلت بأي ذنبٍ قتلت ؟

لماذا يُقتل أهل العراق وفلسطين وأفغانستان و....؟ وقوله تعالى: " عم يتساءلون عن النبأ العظيم...." يوم يرحل أهل الأرض إلى السماء، إلى دار الخلود بين جنة ونارٍ ولا ثالث لهما. وعندها يقول المجرم:

" ياليتني كنت تراباً ".

ويتجلى منّ الله على محمد، بهذه الأنباء الغيبية، وهذه القصص التي فيها عبر لأولي الألباب، وهذا الحصر موقوف على أمة الإسلام.

والنص القرآني يتسائل"

أين كنت يامحمد أنت وقومك عندما أجمع إخوة يوسف على قتله ؟ وكونكم أميين لاتعلمون عن هذه القصة، ولا عن غيرها أي علمٍ، لاقرأتموها، ولاسمعتموها. بينما نحن زودناكم بدقائق مكرهم وحسدهم، وفي النهاية رأيتم كلمة الله هي العليا، وكلمة الذين كفروا السفلى.

وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ {يوسف/١٠٣}

الجنة ظرف للمؤمنين، والدنيا ظرف أخلاط وأمشاج:

ونحن لسنا في الجنة حتى يصبح كل من فيها مؤمناً، ونحن في الدنيا، والدنيا قائمة على التدافع ومهما حرصت –يامحمد– على إيمان الخلق، أكثرهم لايؤمنون. لماذا ؟ لو آمنوا، تقف حركة التدافع، ولابد أن يكون أكثرهم لايؤمنون، وأقلهم يؤمنون، والكِفة غير متعادلة ظاهرياً، والمؤمن مطالب ولو كان وحده، أن يرجح الكِفة لصالحه، لأن الله معه. وهذه ميزة المؤمن، كميزة الجوهرة بين أكوام الخردة.

والأنباء التي يستدعيها الله من الماضي والغيب السحيق، هي أمور وقعت، وستقع، وعلى المسلمين والدعاة ألا يتفاجأوا،كنبأ نوح مع قومه وهو يدعوهم ليلاً ونهاراً على مدى عشرة قرون إلا قليلاً، وما آمن معه إلا قليل.رغم احتكاكه بهم، ومنهم كان في بيته الذي يأوي إليه، يوجد غير مؤمنين، هما زوجته وولده، يشاركانه المأكل والمشرب، وينغصانه في لحن القول، وكان حريصاً أشد الحرص على سلامتهما، حتى اللحظة الأخيرة، يقول : يابُنَيَ تعال اركب معنا، يجيبه: سآوي إلى جبل يعصمني من الماء، وجاء رده: غاية في العقوق والتمرد على الأبوة، وعلى النبوة.

وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ {يوسف/١٠٤}

والدعوة إلى الله مجانية لأنها من ضروريات الحياة كالشمس والماء والهواء، وعجيب أمر هؤلاء الذين تدعوهم يامحمد حسبة وبدون أجر، و تساعدهم في التوجيه والإرشاد والإنقاذ ولا تريد منهم شيئاً... وينفرون، ويعاندون، ولكنها مهمة النبوة التذكير، فمن شاء فليؤمن، ومن شاء فليكفر. ومن رحمة الله على الناس يعمم الدعوة، كما يعمم على الناس الشمس والرياح والمطر،كذلك يعمم عليهم التذكير والدعوة والدعاة. لأن الله بالناس لرؤوف رحيم، وهم في سكرتهم يعمهون، إلا ما رحم ربي.

ومن التجارب الحياتية اليومية نرى الدعاة والأئمة والمؤذنين حتى دفانة الموتى الذين يعملون حسبة لله، مميزين عما يماثلهم من نفس التخصص، ولهم قبول في الأرض وفي السماء أحياءً وأمواتاً.

وَكَأَيِّن مِّن آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ {يوسف/١٠٥}

ولله دعاة صامتون، ودعاة ناطقون مباشرة مع الناس، و الآيات الكونية المبثوثة كدعاة صامتين، يدعون الخلق للخالق ليل نهار، ما عدا النبوة والأنبياء والرسل والمعجزات التي ترافقهم، التي تتعامل مع الناس مباشرة، ففي الكون دعاة لله صامتون وهم يتكلمون بكل العبر والصور، ليتفكروا في خلق السموات والأرض، وكيف يحيي الله الأرض بعد موتها ؟ وكيف تدور الشمس الساعة الكونية الصارمة، ولم تقدم أو تؤخر ثانية عبر الزمن الطويل، ولم تتعطل، ولم تحتج إلى صيانة أو قطعة غيار، أو تزييت أوتشحيم، وكل ما في الكون ينادي من حوله:

في الكون...(إله).

في الكون...(محيي ومميت).

مالكم ألاتبصرون، ألا تسمعون، ألا تعقلون...؟

وهم معرضون لا لنقص الأدلة، بل عن عناد وإصرارٍ، وليس عن جهل أو تجاهلٍ، أو أنهم لايبصرون من يناديهم إلى الله، أو أنهم لايسمعون من يناديهم إلى الله. إنه العتو والجموح.

وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ {يوسف/١٠٦}

فالمؤمنون المخلصون لإيمانهم قلة، وهم الذين تخلصوا من الشرك الجلي والخفي، وسلوكهم مطابق لأقوالهم، ويكشف الله لنبيه سراً عن البقية الباقية التي لم تؤمن بعد، فيهم خلل في الصميم، إن الذين تحرص على إيمانهم سيكون بإيمانهم شوائب، ولو آمنوا ظاهرياً، لأن المرض متجذر في قلوبهم.

أَفَأَمِنُواْ أَن تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ {يوسف/١٠٧}

وهنا بدأ معهم بالتحذير والتهديد:

أفأمنوا أن تغشاهم سحابة من عذاب طويل الأجل كالشعوب التي تقع تحت الاستعمار والظلم، أو تصيبهم سحابة لاتغادر منهم أحداً، أوتمطرهم بحجارة من سجيل، فتجعلهم كعصف مأكول ؟ أو تقوم الساعة التي علمها عند ربي، ولايجليها لوقتها إلا هو، وعندها لاينفع الندم، واللغز في قيام الساعة كموت الفجاءة، بلا مقدمات من صداع أو حرارةٍ، ويتم الأمر فوراً. خذوه، فغلوه، ثم الجحيم صلوه. أو روح وريحان وجنة نعيم...

نبينا معصوم الكلمة، والخطوة، والمنهج،و...

قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَاْ وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللهِ وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ {يوسف/١٠٨}

ومن خصوصيات أمة محمد دون سائر الأمم:

نبينا معصوم، ومن يتبعه فرد أو أمة فهي معصومة، مادامت الخطوة على الخطوة، كعربات القطار، خلف القطار كلها ضامنة للسلامة والوصول إلى المحطة.

والله يعلِّم محمداً مايقول، وهو ضامن للتطبيق الكامل، ولنتائج التطبيق، ومنجزات العمل، وثمار العمل. قل لهم يامحمد:

أنا معصوم السبيل، ومعصوم الدعوة، ومعصوم البصيرة، ومن يتبعني، فهو معصوم، وقوتنا كامنة في وضوح منهجنا، وبأنه مكشوف لنا، كما هو مكشوف لغيرنا كالشمس واضحة للجميع، ومن يأتي من بعد رسول الله من الدعاة والعلماء مهمتهم:

- معرفة هذا المنهج حق المعرفة .

- تطبيقه على أنفسهم بعشق.
- تعليمه للآخرين بالحكمة والموعظة الحسنة.
- حراسته من الداخل بألا يزاد عليه أو ينتقص منه، وكل زيادة أو نقص ليس من الدين، ولكنها من شياطين البشر الذين يلعبون في النار.
- الدفاع عنه من الغزو الخارجي، كالمشوشين والمغرضين والمهاجمين، بالرد عليهم من خلال تبيين الحقائق.

وزبدة القول:

قوتنا في كمال وثبات منهجنا، كما كملت السموات والأرض، وكما كمل خلق الإنسان لايزاد فيه أنف ولارجل، ولاينتقص منه، وقوتنا في ثبات منهجنا، كثبات صورة الآدمي.

وقوتنا في منهج كامل ومجرب ومطبق على الواقع عشرة قرون على معظم القشرة الأرضية، ومازال مطبقاً على ربع سكان المعمورة في الأحوال الشخصية. ومنهج الله في فترة الضياع لم يغب نهائياً، ولم يطبق كاملاً. وهو بين، بين.

ومشكلتنا وضعفنا- أي المسلمين المعاصرين- في غيبة الإرادة والتنظيم، مثال: كل المسلمين يخرجون زكاة الفطر في رمضان، ولو أن قرية فقيرة سكانها ألف نسمة، زكاة فطرها ألف دولار، تشتري بقرة أو اثنتين، وتدفع البقرة لفقير واحد كل سنة، فبعد خمسين سنة لايبقى فقير في القرية، بينما فقراء أكثر القرى يزيدون ولاينقصون،

وهم جلد على عظم، وقوة عدونا في تنظيمه، ومكمن الضعف عنده في غيبة المنهج الكامل والثابت. لذلك مستمرون في تغيير الاستراتيجيات، والنظريات المستوردة والمرقعة من تجارب شعوب شتى.

أَدْعُو إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ

يدعو خلق الله إلى الله، ولايدعوهم لعشيرته، أو حزبه، أو مملكته، أو إقطاعيته....

أدعوكم إلى الله الذي خلق لكم جنة عرضها السموات والأرض، وأودع فيها ما لاعين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، ولكم فيها ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين، "..... وكل صاحب دعوة حريص على حضور المدعوين جميعاً، حتى يروا كرمه وصدق وعده لهم، ولو تخلف جزءٌ من المدعوين، يحزنه ذلك أيما حزن، لأنه ستبقى الموائد على حالها إن غاب أصحابها، وتبقى قصور الجنة حزينة تلعب بها الرياح إن تخلف عنها سكان الجنة..."[٧٩] أدعوكم إلى الله على بصيرة، من الحلال وهو حلال على الجميع، معروف ومكشوف، على المسلم وغيره، ومن الحرام وهو حرام على الجميع معروف ومكشوف على الجميع، وميزان التفاضل عند الله، هي التقوى، إن أكرمكم عند الله أتقاكم.

أَنَاْ وَمَنِ اتَّبَعَنِي

---

[٧٩] بتصرف. هذه الفكرة مستفادة من رسائل النور، للنورسي.

هذه البشارة العظمى للدعاة الربانيين ولكل أمة محمد، نبيها معصوم وهي معصومة، مادامت ملتزمة بأمره ونهيه، الأمة الملتزمة كعربات القطار كل عربة ملتزمة، وكل عربة كأنها قطار، والعربة التي تخرج قِيْد أنملة لم تعد لها صلة بقائدها، هي التي خرجت بنفسها، وأصبحت تمشي على هواها، ولما تعود، يُرحب بعودتها، وسيكون ترتيبها في الأخير.

وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَى أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَواْ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ {يوسف/١٠٩}

وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً

ثناء، وتحفيز للنبي صلى الله عليه وسلم، أي لو لم تكن رجلاً يعتمد عليك لما وقع عليك الاختيار، ولو لم تكن مفردة رجلٍ نادرةً، ونادر من تنطبق عليهم صفة الرجل، لما اختار الله رسله وأنبياءه واصطفاهم اصطفاءً، ولاتوجد لهم نظائر. وكثير من الناس يظن كل ذكر من البشر رجل، الذكورية لإنجاب الذرية، ويستطيع الإنجاب العاقل والمجنون والمعاق والجبان والشجاع....والرجولة لإنجاب المهمات الصعبة.

ومازال السياق ظاهره خطاب مباشر لرسول الله، وباطنه للمشركين وأهل مكة بالذات، وهذه مسيرة الرسل من آدم إلى نوح إلى عيسى-عليهم السلام- كلهم رجال، وأنت رجل مثلهم، وكلهم من أهل القرى، وأنت من أم القرى، ولم يأتِ رسول من البدو، لأن أهل البادية لايملكون إلا مهنة الرعي، فهم ضعاف أمام أبناء المدن والقرى – القرية تسمى مدينة مجازاً-

والبدو لا يملكون النفس الطويل التي تحتاجه الدعوة، علاوة على الملاينة مع عامة الناس.

وهنا مغمز للمعاندين، أما آن لأهالي مكة ومن حولها وهم يقطعون الأرض من شمالها إلى جنوبها، ويمرون على ديار صالح في بلاد الشام، وديار ثمود في جنوب اليمن، وهم يعلمون، أنهم كانوا في المساء ملوكاً، وفي الصباح مشردين بائسين، كيف مسَّاهم اللهُ وبُسْطهم حريرٌ، وصَبَّحهم وبُسْطهم تراب؟ وتركها خراباً يباباً، لم تسكن من بعدهم، حتى يتعظ من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ؟!

وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَواْ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ

وهؤلاء ديارهم خربة في الدنيا، وخربة في الآخرة، وهؤلاء أولاد أبي جهل وأبي لهب و....يقولون: اللهم صلّ على محمد وآل محمد...في اليوم عدة مرات، ولايقولون: صل على أبي جهل ولو لمرة واحد، ديارهم خربة في الدنيا والآخرة، بجوار بني أقوامهم الذين آمنوا واتبعوا الرسل كأبي بكر وعمر...ذرياتهم عامرة، وديارهم عامرة في الدنيا والآخرة، ولهم الفردوس الأعلى وقد استقروا بها، وهل يستوي هؤلاء وهؤلاء، مالكم ألا تبصرون ؟ والكلام متضمن التوبيخ الضمني !

حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَاءهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاء وَلاَ يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ {يوسف/١١٠}

آية وحدها هي منهج...آية وحدها هي جيش...

آية وحدها تصنع رجالاً، آية بها تثبيت، وتسلية، وتبشير، وتهديد، فلمحمد – صلى الله عليه وسلم– ومن معه التثبيت والتسلية والتبشير، وللمشركين تهديد خطير.

وسنة الله مع الأنبياء والأولياء والمؤمنين التمحيص، ليميز الخبيث من الطيب...كما في قوله تعالى: " وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله؟[٨٠] يأخذهم بالتمحيص الشديد، حتى لايثبت إلا النادر، وهو المطلوب، والله لاينتصر بالكثرة ولا يخسر بالقلة،وليس بضعيف، حتى يشد أزره بهذا أو ذاك، والندرة هي بحد ذاتها هدف تربوي للأسوة والقدوة.

حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ

وعندما ينتهي الوقت المحدد للدعوة ويُستيئس، ممن لم يؤمنوا بعد، وهذا نوح بعد عشرة قرون تقريباً، انتهى الأجل المخصص للدعوة، وآمن من قد آمن: " وما آمن معه إلا قليل "[٨١] وما دام استيئس من الباقي، عندها فار التنور.

وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ

وبعض الأنبياء لم يؤمن به أحد، أوآمن به واحد أو اثنان... فغلب على ظنه أنه قدكُذب وغسل يديه منهم، و– ظنوا– خواطر بشرية ترد على القلوب ولاتثبت على صفحة الماء ولعلها مما يعفى عنه، أو أنهم قالوها بسبب تأخير موعد النصر، كما حصل في –أحد– أو أنهم قدموا موعد

---

[٨٠] ٢ | ٢١٤.

[٨١] هود | ٤٠

النصر من عند أنفسم، كما حصل في يوم الحديبية، ومنعتهم قريش من العمرة، فسألوا رسول الله: أنت بشرتنا بزيارة البيت آمنين مقصرين، قال: نعم.. ولكن لم أقل لكم هذا العام.

جَاءهُمْ نَصْرُنَا

النصر سر من أسرار الله يأتي من خارج محيط المعركة، وله علامة مميزة، ينهض بقلة قليلة في كل شيء، ويرفعها على كثرة كثيرة بكل شيء، ولو تكافأت الموازين، فأي ميزة لهذا النصر ؟ ففي القرن الواحد والعشرين، جاء النصر إلى أفغانستان والعراق وجنوب لبنان وغزة و....سُمي نصراً لغياب التكافؤ....والحمد لله !!

جاء نصر الله والفتح... وسيأتي....

والنصر له جناحان: جناح يرفع، ويدفع، ويحفظ به المؤمنين، وجناح قد يهلك الكافرين كلهم أو نصفهم أوعشرهم، أو يؤجلهم إلى حين آخر...

فَنُجِّيَ مَن نَّشَاء

ولما تتأخر النجاة يتضاعف العذاب ويطول الزمن، فاستخدم لطول الزمن كلمة " فَنُجِّيَ" وفي حالة الإسراع يستخدم " أنجى"[٨٢] ففي قصة إبراهيم مع النار ولم يلبث بها إلا قليلاً:" قالوا: اقتلوه أو حرقوه، فأنجاه الله من النار"[٨٣]

---

[٨٢] هذه الفكرة مقتبسة من كتاب بلاغة الكلمة،د| فاضل السامرائي.

[٨٣] العنكبوت| ٦٥.

ينجي المؤمنين كلهم أو نصفهم أو عشرهم...وإن لم ينج هنا في الدنيا، ففي الآخرة ناجٍ ببركة الشهادة، لذلك بقي الحي والميت تحت ظلال : فَنُجِّيَ مَن نَّشَاء

وَلاَ يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ

ولاتوجد قوة مهما تعاظمت أن ترد بأس الله، وترد جنود الله، وترد حول الله وقوته عن المغضوب عليهم، ويومها يكون المجرمون سمكاً في برميل، فأين المفر ؟

ويأتي ختام القصة، كما جاء في بدايتها: " نحن نقص عليك أحسن القصص" للعبر التي فيها، وللذين ينتفعون منها، وينفعون بها، وهم رسول الله ومن معه، فهم أولو الألباب من كل البشرية.

أمة محمد كلها من أولي الألباب:

لانريد أن نضيق واسعاً، ولا نوسع ضيقاً، في تحديدنا لمصطلح (أمة محمد) هل كل من يحمل هذا الاسم؟ أو كل من يلتزم بالأمر والنهي؟...

لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ {يوسف/١١١}

لقد كان، ويكون، وسيكون في قصصهم عبرة وطاقة لاتتناهى لأمة الألباب أمة محمد- صلى الله عليه وسلم- عبرة للمؤمنين في صلة الرحم المقطعة، التي قام بها يوسف ويعقوب، وعبرة للعفاف عند الشباب، وعبرة للتخزين والتقنين، وما كانت هذه القصص من بنات الخيال، وأين كان رسول الله وقومه الأميون من هذا التاريخ السحيق؟

ومن العبر المميزة توفيق الله ليعقوب ويوسف بانقاذ عشرة رجال من العائلة كانوا من الهالكين في الدنيا والآخرة، بينما نوح لم يوفق بابنه، وإبراهيم لم يوفق بأبيه.

ومن إحدى مهام سورة يوسف توصيل الأرحام المقطعة، والتوصيل على حساب الطرف المظلوم، ويريد الله من أهل القرآن أن يتخلقوا بأخلاق يوسف في مشاكلهم العائلية، ويريد الله أن يكون يوسف حاضراً في كل البيوت المهزوزة.

وهنا يبرز سؤال: سورة يوسف بيننا ، وتقرأ كثيراً من قبل كل المسلمين، والبيوتات طافحة بتفاهات لاقيمة لها، وأحياناً تصل حد القتل، أو استمرار الخصومة للموت، ما الذي تغير ؟!

باختصار:

هناك فرق بين من يرقى بنفسه إلى مستوى سورة يوسف، ومن ينزل سورة يوسف إلى مستواه...فالأخوة الذين يختصمون على التوافه، ولايصطلحون، ولايتعظون، هم توافه، فسورة يوسف هي ليست لهم، وإن قرؤوها مراراً، هي مصممة لمن يرقى بنفسه !

وكيف يستطيع بشر يفتري (قصة يوسف) كلاماً مسبوقاً وموثقاً في الصحف الأولى صحف إبراهيم وموسى وعيسى ؟ بل هو تصديق لمن سبقوه من الأنبياء والكتب، وفيه تفصيل لكل مايرضي الله من أعمال العباد، وتفصيل لما يغضبه، ومنارة هدى لكل البشرية، كالشمس يراها الجميع، وينتفع منها الجميع، وفيه رحمة خاصة للمؤمنين في الدنيا والآخرة،

لأن أعمال الناس مهما تعاظمت كثرة وإخلاصاً، لاتكون شيئاً بجوار نعم الله وفضله ! ولعل سائلاً يسأل:

لِمَ يكرر القرآن قصص الأنبياء؟

ويكرر الارتباط بين رسول الله ومن سبقوه من الرسل، وهم في الدار الآخرة، وهو في الدنيا؟ يقول له جل جلاله:" واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا...[٨٤] ورسول الله حي وهم أموات، وكيف يسأل الأحياء الأموات؟

معناها هناك خصوصيات نبوية متبادلة للاتصال فيما بينهم، وآيات كثيرة تربط رسول الله بالرسل والأنبياء وبالأخص الكتب السماوية، يقول الدراز: [٨٥]الغرض منه إعادة نورها ونشره على العالم بعد أن خَفَت على مرّ العصور..." ومنها قوله تعالى:

إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوحٍ والنبيين من بعده..[٨٦].

شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً، والذي أوحينا إليك...[٨٧].

إن تاريخ الأنبياء يتوالى، بدءاً من سيدنا وأبينا آدم عليه السلام، مروراً بنوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومابينهم من الأنبياء والمرسلين- عليهم الصلاة والسلام-، وهناك قصص وردت في الكتاب المقدس تحمل نفس

---

٨٤ الزخرف | ٤٥

٨٥ د | دراز، في كتابه: مدخل إلى القرآن الكريم، ص:٩١....

٨٦ ٤ | ١٦٣.

٨٧ الشورى | ١٣.

العناوين وبعض الملامح العامة للشخصيات التاريخية الموجودة بالقرآن الكريم كقصة إبراهيم وزكريا ويحيى ومريم وعيسى...

وهناك قصص خاصة بالقرآن، كقصة هود مع قومه، وصالح وناقته، ولقمان، وأهل الكهف، وذي القرنين...

وكأن الله أراد أن يجيبنا عما يدور في صدور المؤمنين، ماذا يوجد في الكتب المنزلة على الأنبياء من قبل؟ فأنزل الله نموذجاً منه، قوله تعالى: " قد أفلح من تزكى وذكر اسم ربه فصلى، بل تؤثرون الحياة الدنيا والآخرة خير وأبقى إن هذا لفي الصحف الأولى، صحف إبراهيم وموسى "[٨٨].

وجاء في سورة غافر ذكر ليوسف، وهي آخر آية يذكر بها يوسف، ووصف بأنه (هَلَكَ) بدل: مات، أو توفي، وانفرد يوسف من دون الأنبياء بهذا التوصيف: هَلَكَ، ربما لكثرة التعب والمعاناة مع المزارعين، وبناء المخازن، والمعاناة مع أهل الميرة، وصبره على إلحاح الجائعين، وصده للمستأثرين الذين يبغونها عوجاً.

وَلَقَدْ جَاءكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءكُم بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ {غافر/٣٤}

ما ترشد إليه الآية:

- لم يستسلموا ليوسف، وتشككوا في رسالته، حتى مات.

---

٨٨ الأعلى | ١٣-١٨.

بعدما مات هلاكاً، اعترفوا برسالته، واستعدوا للنبي الذي سيأتي من بعده، بالتشكك والنكران. وهكذا دواليك.

حَتَّى إِذَا هَلَكَ

تستبطن هذه الجملة أن يوسف تعب تعباً شديداً عضلياً ونفسياً، حتى انبرت عافيته في سبيل الله، ولم يورث قطعة لحمٍ من جسده للأرض، لذلك مجرد أن تحققت رؤياه باجتماع العائلة وخروا له سجداً، طلب الرحيل للدار الآخرة، لأنه لم تبق عنده صحة أو عافية، يتمتع بماذا؟

وهناك أثر يكرره الناس ما يدعم هذا السياق: " إن الله ليستحي أن يعذب شيبةً شابت في الإسلام " من كثرة الجهاد، والصد، والرد، وتحمل البلاء، وهذان نموذجان معاصران شابا في الإسلام حقاً: علي عزت من البوسنة والهرسك، وأحمد الياسين من غزة فلسطين، رحمهما الله، وهما من المعاصرين، عاشا مجاهدين وأسيرين، ولافرق بين بيوتهما وسجونهما لأنهما تحت الحصار، والشائع عند العامة، أن كل من مات ولحيته بيضاء ، له ميزة ما، هيهات ! هيهات !

وهناك مجاهدات جاهدن طول العمر ومُتن في سبيل الله وبدون لحية أي شيبة شابت. وهن لسن معصومات، فيستحي الله أن يعذب مثل هذه النماذج كأمنا خديجة رضي الله عنها، وغيرها.

وكثير ممن تسللوا إلى صفوف الدعوة، يمنون على الله بقولهم: لا إله إلا الله، وبها اشتهروا، وأكلوا، وشربوا، وطربوا...

الفصل الرابع

مقارنة بين روايتي القرآن والكتاب المقدس لقصة يوسف

ومن أجل رسم صورة تقريبية للتشابه بين الكتب السابقة والقرآن في القصص التاريخي، نأخذ سورة يوسف كنموذج، وقد قام بهذا العمل المميز مالك بن نبي- رحمه الله- في كتابه الظاهرة القرآنية، ترجمة عبد الصبور شاهين:

والمقارنة بين الرواية القرآنية ، ورواية الكتاب المقدس: في ثلاثين حدثاً، ويحكم (ابن نبي) على كل موقف: بالاتفاق أو الاختلاف أو...

وممكن زيادة نقاط المقارنة لأكثر مما ذكر، ولكن ماذكر يكفي لاعطاء صورة عامة.ص:٢٤٠. وما بعد.

وهذا الجدول صورة طبق الأصل من كتاب (ابن نبي)...[٨٩]

---

[٨٩] مالك بن نبي- رحمه الله- في كتابه الظاهرة القرآنية، ترجمة عبد الصبور شاهين:ص٢٤٠.

جدول التفاصيل القرآنية في قصة يوسف

-١-

رقم الآية القرآنية	الرواية القرآنية	الرواية الكتابية	ملاحظات
١ ـ ٣	مدخل يضع القصة في إطار الظاهرة الدينية	مدخل يضع القصة في الاطار العائلي	اختلاف
٤ ـ ٦	رؤيا واحدة ليوسف	رؤييان ليوسف	اختلاف
٧ ـ ١٥	ذهاب يوسف بموافقة يعقوب عقب التآمر عليه	ذهاب يوسف بأمر يعقوب	اختلاف
١٦ ـ ١٨	ارتياب يعقوب في أولاده وأمله عقب المؤامرة	سرعة تصديق يعقوب ويأسه عقب المؤامرة	اختلاف
١٩ ـ ٢٠	بيع يوسف ووصوله إلى مصر	نفس الرواية	القرآن يؤكد أكثر تدخل إرادة الله
٢٤	هم يوسف بالمعصية وبرهان الله له	لم يرد	
٢٥	القميص تقده المرأة	القميص تأخذه المرأة	
٢٧ ـ ٢٩	إدانة خلقية من الزوج لزوجته	غضب الزوج على يوسف	اختلاف
٣٠ ـ ٣١	فضيحة في المدينة واجتماع للنسوة	لم يرد	
٣٤	دعاء يوسف أمام إلحاح المرأة	لم يرد	النبي يتحدث أكثر في القرآن
٣٦ ـ ٤٠	وعظ يوسف لأصحابه	لم يرد	
٤١	تعبير الرؤيين يطلب من يوسف	تعبير الرؤيين يتقدم به يوسف	اختلاف
٤٢ ـ ٤٨	حل نفسي لعقدة السجن باعتراف المرأة	حل سياسي مترتب على رؤيا فرعون	الروح تتكلم أكثر في القرآن
٤٩	تكهن بعام الرخاء والنجاة	لم يرد	
٥٣	وعظ في حضرة الملك	لم يرد	شخصية النبي أكثر ظهورا في القرآن

رقم الآية القرآنية	الرواية القرآنية	الرواية الكتابية	ملاحظات
٥٤	رد اعتبار يوسف	تهمة معهود بها إلى يوسف	عدالة في القرآن وسياسة في التوراة
٥٥	يوسف يطلب مسؤولية الخازن	مسؤولية الخازن تعرض عليه	اختلاف
٥٧	اهتمام بالآخرة	لم يرد	الدين يتكلم أكثر في القرآن
٥٨ ـ ٦٢	مشهد يوسف مع إخوته	صورة بتصرف	يوسف أكثر نبوة في القرآن
٦٣ ـ ٦٧	بواعث العودة إلى مصر : مسعى أبناء يعقوب لديه	بواعث العودة إلى مصر أمر يعقوب الذي يبدو كأنما ترك شمعون لمصيره	الاتهام بالجاسوسية إعتقال شمعون غير وارد في القرآن
٦٨ ـ ٦٩	وصولهم إلى مصر وتآمر يوسف	نفس الصورة	
٧٠ ـ ٧٩	رحيل إخوة يوسف واعتقال بنيامين	مع بعض التصرف	
٨٠	تشاور الأخوة	لم يرد	
٨١ ـ ٨٧	عودة الابناء إلى يعقوب الذي يستعين بالأمل والمصابرة	لم يرد	
٨٨	عودة إلى مصر لدى يوسف	لم يرد	
٨٩ ـ ٩٢	مشهد الحل بعفو يوسف عن إخوته	حل الموقف بانفعال يوسف	اختلاف
٩٣	إرسال قميص يوسف إلى أبيه	لم يرد	
٩٤ ـ ٩٥	وجدان يعقوب	لم يرد	
٩٦ ـ ٩٩	شفاء يعقوب ودعاؤه وعفوه عن بنيه	لم يرد	
١٠١	ختام يوسف للقصة بحمد الله والثناء عليه	لم يرد	المعالم الروحية في القرآن

نتائج المقارنة بين الروايتين كما يراها المؤلف ابن نبي باختصار وتصرف شديدين، والغاية إبراز الطابع الخاص بالقرآن:

- السدى التاريخي واحد في الروايتين.
- ماتميزت به الرواية القرآنية:
- الرواية القرآنية تفيض بالجانب الروحي، وحرارة يعقوب محسوسة عندما أخبروه عن غياب يوسف، وفي كل المواقف.
- الجانب النبوي عند يعقوب، غالب على الجانب الأبوي، ويتجلى ذلك عندما دفع بنيه للتحسس من إخوتهم.
- امرأة العزيز أنَّبها ضميرها، كيف لوثت رجلاً طاهراً مطهراً؟ فاستسلمت للحق، وإعترفت بالخطأ، وبرأت ساحة يوسف.
- يوسف في كل المواقف يتحدث كنبي ومسؤول.
- حل عقدة القصة تظهر انتصار الحق المتمثل في يوسف، وقد قالها يوسف لأبيه بعد أن رفع أبويه على العرش: " يا أبتي هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقاً...."
- وأما ماتميزت به الرواية الكتابية، حسب رأي ابن نبي:
- تبالغ في وصف المصريين بأوصاف عبرانية، فالسجان موحد.
- توصيف المجاعة توصيفاً ضعيفاً: "فابتلعت السنابل الجياد"
- هناك قدر من الوضع لدى النساخ المتعصبين:" لأن المصريين لايجوز لهم أن يأكلوا مع العبرانيين، لأنه رجس "
- وإخوة يوسف كانوا يستخدمون بدل "العير" الحمير في سفرهم، والحمير يصعب عليها أن تجتاز الصحاري لأن أطراف

الحمار تغرز للركبة في الرمل، والحمار حيوان الحضر، والجمل حيوان البدو.

- وخاتمة القصة سرداً تاريخياً لاستقرار العبرانيين في مصر.

وتكلم د| شوقي أبو خليل بايجاز عن خط سير رحلة يوسف بدءاً من القدس، واستقر في عاصمة الهكسوس (أفاريس، صان الحجر اليوم، قرب بحيرة المنزلة) وأسكن أباه والعائلة(جاسان أو جاشان) سفط الحنة حالياً، وبعد موته نقل إلى الخليل (حبرون)، وفي مغارة المكفيلة تابوت يوسف، وله مقام بنابلس (شكيم)، وآخر قرب بلدة النبك هضبة القلمون السورية. بتصرف[٩٠]

ووضع خريطة لمسير الرحلة اليوسفية من القدس إلى أفاريس. وهي مرفقة على غلاف الكتاب من الداخل، ويصعب الجزم في دقة المعلومة التاريخية، خارج النص القرآني، ولكن للإستئناس.

من ذا الذي يملك الزمن من أطرافه بشخوصه وأحداثه وأخلاق الأمم والشعوب، وجهاد الأنبياء والمصلحين، وصراعات الخير والشر، وجاء القرآن الكريم ليقدم للناس صورة عن التدافع البشري،وهذه نماذج من أخبار التدافع، كقصة أصحاب الفيل، وقصص واقعية منظورة كقصة يوسف، وقصص بين بني البشر و بين عالم الطير والنمل مع سليمان، وقصص غير منظورة كالذي جرى بين آدم عليه السلام وإبليس في السماء، وبين إبراهيم والشيطان في وادي منى....

---

[٩٠] أطلس القرآن، د| شوقي أبو خليل،ص: ٦٧،

الله وحده الذي يملك الزمن، ومن فيه، وماجرى فيه، وما سيجري فيه !

عود على بدء، وكلمة الختام

بدأنا بالإهداء... ونختم بالنداء إلى الشباب الإسلامي الذي يعيش في العالم الغربي، وعرف الغرب عن قرب، وفرض القدر عليه أن يعيش عيشة يوسف –عليه السلام– بين الخدور والقصور ، والخدود والورود ونهل من تقنيته، وتحصن بالإيمان ضد فوضاه الخلاقة، وعبثيته في القيم الروحية والأخلاقية والاجتماعية وتأثيره الشديد على شريحة كبرى من شباب العالم الإسلامي ، وأعطى الغرب القيم الإسلامية مسمياتٍ كثيرة مزورة، بمثابة إسرائليات القرن العشرين ومنها " التقاليد" ...

ومما يقوله الرافعي في وحي القلم:"...وكيف أصبحت هذه الكلمة السامية مبْذوء الكلام، حتى صارت غير طبيعية في هذه الحضارة؟ ثم كيف أحالتها فجعلتها في العصر أشهر كلمة على الألسنة، يتهكم بها على الدين والشرف وقانون العرف الاجتماعي في خوف المعَرّة والتصاون من الرذائل والمبالاة بالفضائل؟

فكل ذلك تقاليد..."

ونفخ– الغرب– في كلمتي: الحب، والحرية الشخصية، إنهما كلمتا حقٍ، يراد بهما ألف باطل وباطل، وهذا بعض ما أرادوا:

"... زمن كسد فيه الزواج، ورق فيه الدين، وسقط الحياء، والتهبت العاطفة، وانتشر اللهو، وكثرت فنون الإغراء..."

"... وصار المجتمع كله شباناً وقل فيه الأزواج، وبهذا أصبح تأثير الشباب على الفتاة، أقوى من تأثير الشرف، وأصبح يقنعها منه أخسُ برهاناتِهِ، لا لأنه مقنع، ولكن لأنها هي مهيأة للاقتناع..."

ثم يقارن بين امرأتين مسلمة، ومستغربة:

"...والمرأة التي تربح الشارع والشاشة وتخسر البيت والزوج والأمومة... وامرأة تنجب بضعة أولاد، وأخرى تنجب بضعة مسلسلات وإعلاناتٍ ، و..." ويتابع التصوير ويحلل كيف يتصيدون المرأة؟:

"...سلها الجزار من خدرها سلاً، وسلها من ثيابها، ومن حيائها، إنه الجزار الذي لايذبح بالسكين، ولكن يذبح باللذة..."

"...دلال جسدها ينادي عليها في الشارع، من يشتري: العيون الكحيلة، والخدود الوردية، والشفاه الكرزية، والأعطاف المرتجة، والسرة البارزة كقرص الجبن..."

"... الصيف ! وما أدراك ما الصيف ؟ الصيف عند الغرب ملك فوق الملوك، وسلطانه فوق ذوي السلطان، سلطانه العري، والشاطئ حانوت للزواج، وفيه تعرض الأجسام مفاتنها عرض البضائع، وفيه أجسام جالسة لغيرها، إنها سوق للرقيق...وكان الجدل حول السفور، صار الجدل حول العري، وكان الجدل حول تعدد الرجل، صار الجدل حول تعدد المرأة ...هَيْتَ لَكَ..." بتصرف من وحي القلم، للرافعي.

أيها الشباب المسلم في الغرب أنتم الأسوة والقدوة لإخوانكم في العالم الإسلامي من خلال الواقع الذي تعيشونه في كل لحظة، وبعض شبابنا في المشرق أصابهم خلل في الموازيين، وصاروا قابلين للتحلل بأي حمض غربي، لأنهم عاشقون للغرب، ولاتوجد في التاريخ أمة محترمة، تعشق عدوها، وتقلده حتى في مهاوي الردى.

فإخوانكم بالمشرق دخلوا جحور الضب كلها، وناموا نومة أهل الكهف، وعليكم إخراجهم من خلال تألقكم، وتأنقكم، وارتفاعكم فوق ثقافة الأجوفين الفم والفرج، إخوانكم في المشرق حفظوا الثقافة الغربية المتبرجة عن ظهر قلب ومن الجلد للجلد، بما فيها تاريخ الطبعة، وعددها، وأنتم أمل المشارقة بفضل اعتزازكم بدينكم وبأمتكم. وننتظر شروق شمس الإعتزاز بالإسلام من الغرب.

ومن إسرائيليات القرن العشرين التي يستخدمها الغرب (العولمة):

عولمة الصناعة؟ عولمة التقنية؟ عولمة الإدارة؟... المهم كل شيء لصالحه.

وإنا عن أي منفعة لمبعدون، ولكنه يدعونا لعولمة العري، ويراد تحويلنا إلى مجتمع بحري سمكي كله بلا سراويل، ولو حاول واحد أن يخصف على نفسه من أوراق آدم- عليه السلام- قالوا: التقاليد.

وماذا يستفيد العدو منا بعدها؟

من كان عنده استعداد أن يتخلى عن عقاله، وعمامته، عنده استعداد أن يتخلى عن الماضي، والحاضر، والمسقبل..!

الفهرس

الصفحة:

٣-الإهداء.

٤- المحتوى.

٥-مما اختص الله به يوسف.

٦-المقدمة:اقرأْ، وارقَ... لاتقرأْ ورقةً..

٨- تمهيد

٩- دراسة حول القصة القرآنية عامة، واليوسفية خاصة.

١٠-رحلتي مع قصة يوسف -عليه السلام-

١١-رمضان١٤٣٠هـ والمسلسلات اليوسفية:

١٢-مناخ السورة زماناً، ومكاناً، وقرآناً.

١٣- لماذا خمس سور أوسطها "يوسف" واستهلالاتها (أ، ل، ر)؟

١٥-خمس سور فيها إيحاءات تربوية ذات وجهين.

١٦-القصة القرآنية سماوية المهبط واقعية الحدث.

١٨-الحسد محور من محاور قصة يوسف.

٢٠-يوسف أوذي من حاسديه وعاشقيه.

٢١-القصة القرآنية تولد التفكير والتغيير.

٢٣-القرآن ينفرد بميزة بأنه يصور من الداخل.

٢٤-أثر قصة يوسف في السنة النبوية.

٢٦-اسم يوسف بقي بسورة يوسف.
٢٧-نبهنا القرآن سورة للإدارة وسورة للصناعة.
٢٨- رعاية الأطفال الموهوبين.
٣١-لقد فار التنور بالمناهج المتبرجة...
٣١-منهجنا في هذا البحث.
الفصل الأول:
٣٢-النص وتوزيع الآيات.
٣٢-لحروف المقطعة سرٌّ دفين، وكنز ثمين.
٣٥-لماذا تكرر: ذلك"الكتاب" أكثر من: ذلك"القرآن" ؟
٣٧-القرآن عربي وسره في عربيته.
٣٩-العربية شعار الإسلام والمسلمين.
٤٠-التحدث بالعربية تشبه بالنبي والصحابة.
٤٢-نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ: الجمع يخاطب المفرد.
٤٢-أحسن القصص لأحسن الوجوه.
٤٦-الفصل الثاني: سورة وسيرة
٤٨-يعقوب رأى المنحة، والمحنة...
٤٩-يعقوب نبي: تشوف حجب المستقبل.
٥١-التظالم العائلي كان، ومازال، وسيبقى...
٥٣-عقوق البنوة والنبوة ليعقوب، وعقوق الأخوة والنبوة ليوسف.
٥٣-والتوبة المسبقة -هنا- جزء من مخطط الجريمة.

٥٤-بعد غزوة نابليون لمصر،جرت | ٣٣٣ | غزوة للعالم الإسلامي.

٥٥-لماذا كرروا" ياأبانا" ولم يقولوا: ياوالدنا مرة واحدة؟

٥٧-ماذا يطوي كثيراً من تفصيلات الحدث ؟

٦٠-الذئب يطبق حديث : يستغفر الإناء للاعقه !

٦٢-الصبر الجميل، والصبر المرّ.

٦٣-يوسف لأنه بدوي نحيف خرج بالدلو.

٦٥-يوسف يدخل مدرسة الاعداد القيادي.

٦٧-فترة المراهقة فترة للإبداع.

٧٢-شعار الشباب المؤمن: معاذ الله !

٧٤-ولماذا دارت مفردة " ربّ" ثلاث عشر مرة ؟

٧٩-ميزة قميص الأمراء يقد، ولايشق.

٨٢-لماذا جاء " شاهد" من أهلها، نكرة؟

٨٣-يوسف: مفعول به، وعلامته الفتحة الظاهرة في آخره.

٨٥-الحرب الناعمة بين الحريم .

٨٨- لمَ قطعن أيديهن، ماعدا امرأة العزيز ؟

٩٢-يوسف بين العصمة والبشرية والفطرة والتدافع الداخلي.

٩٤-من القصر إلى المدرسة اليوسفية.

٩٨-يوسف يرشد للتوحيد، ولم يطلب صلاةً أو صياماً.

١٠١-ياصاحبي السجن، الوفاء عند الأنبياء .

١٠٦-ربط الله العقول عن رؤيا الملك، ليأتي يوسف.

١٠٩-يوسف يعلن الطوارئ خمسة عشر عاماً.

١١٠-انفجار بركاني حجب الشمس عن المنطقة.
١١٣-السجين يأمر، وينهى، ويرفض طلب الملك.
١١٥-أنصفن يوسف، ولم يدفعن عن أنفسهن.
١١٨-يوسف يفضل المستودعات على القصور.
١٢٢-منطلقنا نعطي ولا نأخذ، ومنطلق غيرنا يأخذ ولايعطي.
١٢٣-بدأت محنة أخوة يوسف.
١٢٧-يعقوب يتنبئ لحدث ما داخل الميرة.
١٣١-يوسف يقوم بخرق سفينة العير، ويحتجز أخاه.
١٣٣-يوسف احتجز أخاه يحميه من الانتقام.
١٣٥-العلم إعارة وليس تملك.
١٤٠-الخلط بين علم الغيب وخبر الغيب.
١٤٢-تشابه بين يعقوب وجده إبراهيم في الابتلاء الأسري.
١٤٨-" ...لكل أجل كتاب"يوسف يكشف عن نفسه.
١٥٠-القميص الثالث إعجاز نبوي.
١٥٣-قطرة العين القرآنية.
١٥٥-يعقوب أخر الاستغفار، ليستأذن ربه.
١٥٨-يوسف يملك شطر الجمال، والبر، والتواضع.
١٦٢-يوسف يستعجل لقاء ربه.
١٦٥-الفصل الثالث: ماترشد إليه السورة من عظات وعبر.
١٦٦-الجنة ظرف للمؤمنين، والدنيا ظرف أخلاط وأمشاج.
١٧٦-النبي معصوم الكلمة، والخطوة، والمنهج،و...

١٧٨-أمة محمد كلها من أولي الألباب.
١٨١-لِمَ يكرر القرآن قصص الأنبياء؟
١٨١- الفصل الرابع:
١٨١-مقارنة بين روايتي القرآن والكتاب المقدس لقصة يوسف.
١٨٦- عود على بدء وكلمة الختام.
١٨٩- الفهرس
١٩٤-مصور لرحلة يوسف من القدس إلى أفاريس.